على حافة السيف

هولوفيرا وأورخان بين ذاكرة التاريخ وخيال الحكاية

رمضان مصطفى سليمان

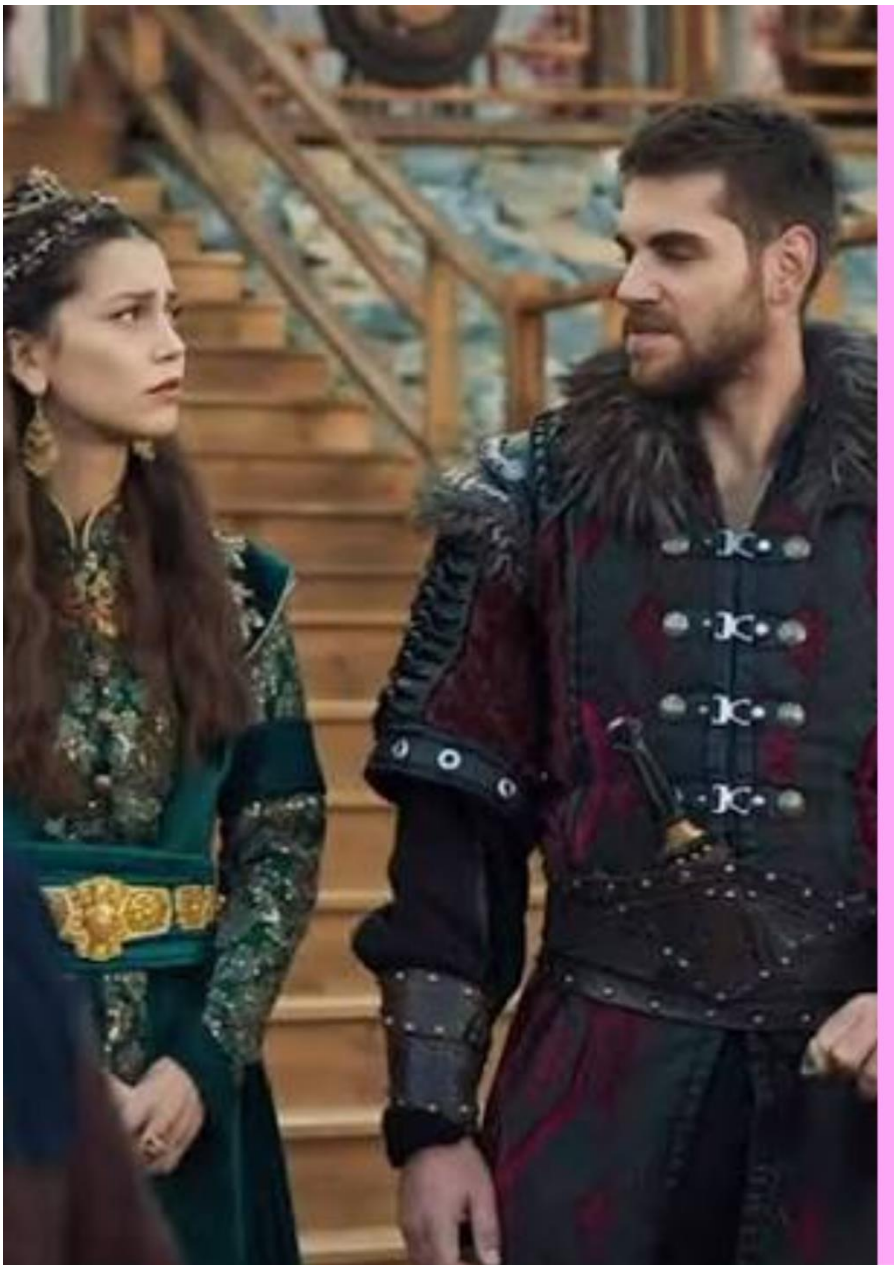

حين يكتب التاريخ حكايته على حافة السيف

في أواخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر ، لم تكن الأناضول بلدًا واحدًا بالمعنى الذي نفهمه اليوم. كانت أرضًا واسعة تتنفس بصعوبة بين إمبراطوريات تتراجع وقوى جديدة تبحث عن مكان لها تحت الشمس. في المدن، كانت الأسوار البيزنطية العتيقة تحرس ذاكرة إمبراطورية أخذت تفقد أطرافها ببطء، وفي الأرياف والسهول كانت القبائل التركمانية تتحرك بخفة، تحمل خيامها وسيوفها وأحلامها من مكان إلى آخر.

كانت السلطة السلجوقية في الأناضول قد دخلت مرحلة من الضعف تحت ضغط المغول ، ولم تعد الحدود واضحة إلا في كتب المؤرخين. أما على الأرض، فكان كل شيء أكثر غموضًا. قرية قد تصبح حصنًا، وحصن قد يتحول إلى سوق، والطريق التجاري نفسه قد يكون طريقًا للقوافل في الصباح، وللفرسان في المساء.

كانت التجارة والحرب تعيشان جنبًا إلى جنب. تمر القوافل محملة بالحرير والتوابل والجلود ، ويجلس التجار في الخانات إلى جوار رجال يحملون أخبارًا عن سقوط قلعة أو مقتل أمير. وكانت المصاهرة، مثل السيف، أداة من أدوات السياسة. أحيانًا يبدأ السلام بكلمة، وأحيانًا يبدأ بزواج.

في هذا العالم المضطرب ظهر عثمان بن أرطغرل ، ثم ابنه أورخان، في لحظة كانت فيها إمارة صغيرة على تخوم العالم البيزنطي تتحول تدريجيًا إلى قوة أكثر تنظيمًا. لم تكن الدولة العثمانية قد وُلدت بعد بالصورة التي سيعرفها التاريخ لاحقًا، ولم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بأن تلك الإمارة الحدودية ستصبح إمبراطورية تمتد قرونًا طويلة.

لكن التاريخ، في بداياته ، لا يأتي عادةً على هيئة إمبراطوريات. يأتي في صورة رجال ينتظرون عند باب قلعة ، ونساء يراقبن من نوافذ بعيدة ، وفرسان لا يعرفون إن كان الغد سيحمل لهم النصر أم القبر.

ومن بين الحكايات التي ارتبطت بهذه المرحلة قصة هولوفيرا، التي عُرفت في الرواية العثمانية باسم نيلوفر خاتون، وزواجها من أورخان غازي. وهي حكاية بقيت حية في الذاكرة ، لا لأنها محفوظة بكل

تفاصيلها في المصادر المبكرة ، وإنما لأن الزمن أضاف إليها طبقات من الرواية والخيال.

وهنا تبدأ المشكلة الجميلة في كتابة التاريخ.

فالمصادر المبكرة لا تقدم لنا رواية مكتملة عن قصة حب بالمعنى الحديث. ولا تسمح لنا بأن نجزم بكل التفاصيل التي شاع تداولها في الروايات الشعبية والأعمال الدرامية الحديثة. وما نعرفه عن نيلوفر خاتون يرتبط أساسًا بما حفظته المصادر العثمانية اللاحقة، في حين بقيت تفاصيل اللقاء الأول بينها وبين أورخان، ومشاعرها، وحواراتها، والظروف الدقيقة التي أحاطت بزواجها، في منطقة يختلط فيها التاريخ بالأسطورة.

لذلك فإن الحكاية الآتية لا تقدم الخيال بوصفه حقيقة. إنها محاولة أدبية لتخيّل ما يمكن أن يكون قد حدث في الفراغات التي تركتها المصادر ، مع الحفاظ على الإطار التاريخي العام.

فالتاريخ يمنحنا الهيكل، أما الأدب فيحاول أن يضيء ما بين الحجارة.

*

مدينة تنتظر عند الأسوار

كانت مدن الأناضول في ذلك الزمن تشبه رجالًا كبارًا أنهكهم العمر ، لكنهم ما زالوا يرفضون الجلوس. كانت نوافذ البيوت تطل على الطرقات ، والناس يتابعون حركة الفرسان كما يتابعون تغير الطقس.

في واحدة من تلك المناطق عاشت هولوفيرا ، التي ارتبط اسمها لاحقًا بنيلوفر خاتون. ولا نملك عن حياتها الأولى تفاصيل كافية تسمح برسم صورة تاريخية كاملة لها. لكننا نستطيع أن نتخيل امرأة نشأت في عالم كان الخوف فيه جزءًا من الحياة اليومية.

كانت تسمع من الرجال حديثهم عن الحدود ، ومن النساء أخبار القلاع والزواج ، ومن التجار أسماء المدن التي تتغير ولاءاتها كما تتغير اتجاهات الريح.

ربما كانت تعرف أن العالم خارج الأسوار ليس عالمًا بعيدًا. كان يقترب كل يوم.

وفي ليلة باردة ، بينما كانت نار صغيرة تتراجع في الموقد ، سألت هولوفيرا امرأة أكبر منها سنًا : لماذا يخاف الناس من الغرباء إلى هذا الحد ؟

أجابتها : لأن الغريب قد يصبح عدوًا، وقد يصبح زوجًا، وقد يصبح سيدًا. نحن لا نخاف الغريب نفسه ، بل ما يمكن أن يفعله بنا.

بقيت الكلمات في ذاكرتها.

كان ذلك هو زمن الحدود؛ حيث لم يكن الإنسان يعرف دائمًا من سيكون عدوه غدًا.

*

أورخان: ابن رجل يفتح الطريق

كان أورخان قد نشأ في عالم لا يسمح للأبناء بأن يكونوا مجرد أبناء. كان عليه أن يكون امتدادًا لمشروع والده عثمان ، وأن يفهم شيئًا لم يكن من السهل فهمه : أن القوة وحدها لا تبني دولة.

كان السيف ضروريًا، لكنه لم يكن كافيًا. كان عليه أن يعرف متى يحارب، ومتى يتفاوض، ومتى يترك بابًا مفتوحًا بدلًا من أن يحرق المدينة كلها.

وحين بدأت قوة الإمارة تنمو ، أصبحت المدن البيزنطية القريبة جزءًا من حساباته السياسية والعسكرية. كانت القلاع أهدافًا ، لكنها كانت أيضًا أسواقًا ، وطرقًا ، ومواضع للسكان والتجارة.

وفي هذا السياق يمكن فهم قصة هولوفيرا بعيدًا عن الصورة الرومانسية البسيطة التي صنعتها الدراما الحديثة.

فإذا كان الزواج قد حدث فعلًا في إطار سياسي واجتماعي معقد ، فإن المرأة لم تكن بالضرورة مجرد شخصية في قصة حب. كانت أيضًا جسرًا بين عالمين.

وربما كانت تلك هي المفارقة الأعمق في حياتها : أنها لم تعبر من عالم إلى آخر بالسيف، بل عبرت بالزواج.

حين يلتقي عالمان

لا نعرف على وجه اليقين كيف كان اللقاء الأول بين هولوفيرا وأورخان، ولذلك لا يصح تقديم مشهد بعينه باعتباره حقيقة تاريخية. لكن

الخيال يستطيع أن يسأل : ماذا لو جلس الاثنان يومًا في مكان هادئ، بعيدًا عن أصوات الرجال ؟

قد يكون الحوار، في تلك اللحظة المتخيلة، بسيطًا.

قالت : أنتم القادمون من الشرق لا تتعبون من السفر ؟

أجاب أورخان : ومن قال إننا نعرف إلى أين نسافر ؟

نظرت إليه طويلًا.

أليس هذا مخيفًا ؟

ابتسم.

المخيف أن تعرف الطريق ، ثم تكتشف في نهايته أنك كنت تسير في الاتجاه الخطأ.

لم تكن تعرف هل كان يتحدث عن الطريق أم عن الحياة.

وكانت تلك، ربما، هي المسافة التي تفصل رجلًا يعيش بالسيف عن امرأة تنظر إلى العالم من خلف نافذة.

هو يرى الحدود خطوطًا ينبغي عبورها. وهي تراها بيوتًا يعيش فيها أناس.

لكن الإنسان لا يبقى طويلًا على الجانب نفسه من التاريخ.

*

الزواج الذي تجاوز الحكاية الشخصية

إذا صحت الصلة بين هولوفيرا وأورخان كما حفظتها الرواية العثمانية ، فإن زواجهما لم يكن مجرد حدث عائلي. فالزواج في المجتمعات الحدودية كان يحمل معنى سياسيًا واجتماعيًا أكبر بكثير من معناه الشخصي.

كان يمكن للزواج أن يخفف عداوة ، أو يفتح طريقًا ، أو يربط جماعة بأخرى.

لكن ذلك لا يعني أن المشاعر كانت غائبة.

وهنا يصبح من الضروري ألا ننظر إلى المرأة التاريخية باعتبارها مجرد قطعة على رقعة سياسية. فحتى حين تتحرك القوى الكبرى من حولها، تظل لها حياة داخلية لا تسجلها الوثائق.

ربما كانت هولوفيرا خائفة. ربما كانت حزينة على المكان الذي تركته. وربما كانت، مثل كثير من البشر الذين وجدوا أنفسهم فجأة في حياة جديدة، تحمل في قلبها شعورين متناقضين: الحنين إلى ما مضى، والفضول تجاه ما سيأتي.

وفي ليلة انتقالها، يمكن أن نتخيلها تنظر إلى السماء وتسأل نفسها : هل يمكن للإنسان أن يحمل وطنين في قلب واحد ؟

لم يكن لديها جواب. وربما لم يكن التاريخ نفسه يعرف الجواب.

*

نيلوفر خاتون: الاسم الجديد

مع انتقال هولوفيرا إلى العالم العثماني ، ارتبط اسمها باسم نيلوفر خاتون ، وهو الاسم الذي حفظته الذاكرة العثمانية لاحقًا. ومع مرور الزمن ، لم تعد المرأة التي دخلت الحكاية من عالم بيزنطي مجرد زوجة لأورخان، بل أصبحت شخصية ذات حضور في التاريخ العثماني المبكر.

وهنا تحدث إحدى أكثر عمليات التاريخ غموضًا : تتحول حياة الإنسان من تجربة شخصية إلى رمز.

فالناس الذين عرفوها في حياتها ربما كانوا يرون امرأة عادية ، لها عاداتها وخوفها وذكرياتها. أما المؤرخون الذين جاءوا بعدها بقرون ، فقد رأوا فيها علامة على التداخل بين العالمين البيزنطي والتركي.

وقد يكون هذا هو السبب في أن قصتها بقيت. ليس لأنها قصة حب كاملة، بل لأنها قصة عبور.

امرأة تعبر من ثقافة إلى أخرى. وأمير يعبر من إمارة حدودية إلى مشروع دولة. وعالم قديم يعبر، ببطء، إلى عالم جديد.

*

ما الذي لم تقله المصادر ؟

الصمت الذي تتركه المصادر التاريخية ليس فراغًا دائمًا. أحيانًا يكون الصمت هو أكثر الأشياء إثارة للخيال.

لا تخبرنا الوثائق ماذا شعرت هولوفيرا في يومها الأول في بيت أورخان. ولا تخبرنا إن كانت قد بكت. ولا نعرف ما إذا كانت قد سألت عن أهلها. ولا نعرف كيف تحدثت مع النساء اللواتي وجدت نفسها بينهن.

هذه التفاصيل لا ينبغي أن نخترعها ثم نقدمها كحقائق. لكنها تصلح مادة للأدب ، ما دمنا واضحين في الفصل بين ما نعرفه وما نتخيله.

وهنا يمكن للخيال أن يكون أمينًا، حتى وهو يتخيل. يمكنه أن يقول : ربما. يمكنه أن يترك الباب نصف مفتوح. وربما تكون كلمة «ربما» واحدة من أكثر الكلمات احترامًا للتاريخ.

*

حين يصبح الحب جزءًا من ذاكرة الدولة

لم تولد الدولة العثمانية من قصة واحدة، ولا صنعها زواج واحد. كانت ثمرة عقود من الصراع والتحالف والتنظيم والحرب والتجارة وتبدل موازين القوى. وكان عثمان وأورخان جزءًا من هذه العملية التاريخية الطويلة.

لكن التاريخ الكبير لا يلغي التاريخ الصغير.

فوراء كل توسع عسكري كانت هناك بيوت تفتح أبوابها للغرباء، ونساء يفقدن أبناءهن، وأطفال يتعلمون أسماء مدن لم يروها، ورجال يرحلون ولا يعرفون إن كانوا سيعودون.

وفي هذه المساحة الإنسانية تقع قصة هولوفيرا ونيلوفر خاتون.

قد لا نستطيع أن نثبت كل مشهد من مشاهدها ، ولا أن نعرف ما قيل في اللقاء الأول ، ولا أن نستعيد الكلمات التي عبرت بين امرأة خرجت من عالم بيزنطي ورجل كان يقف عند بداية عالم عثماني جديد.

لكننا نستطيع أن نفهم شيئًا أعمق. كانا، في نهاية الأمر، شخصين يعيشان في زمن لا يرحم الخصوصية. زمن كان التاريخ فيه يدخل غرف الناس من دون استئذان.

وربما لهذا بقيت الحكاية.

لأنها لا تتحدث فقط عن أورخان وهولوفيرا ، ولا عن بيزنطة والتركمان، ولا عن الحرب والزواج. إنها تتحدث عن الإنسان حين يجد نفسه أمام قدر لم يختره ، ثم يحاول أن يمنحه معنى.

بعد قرون، ستتغير أسماء المدن، وستسقط القلاع، وستُكتب الكتب، وستكبر الدولة حتى تصبح إمبراطورية. لكن صورة واحدة ستظل ممكنة في الخيال: امرأة تقف قرب نافذة، تنظر إلى طريق غريب، ورجل يقف في الجهة الأخرى من ذلك الطريق، يحمل في يده سيفًا، وفي قلبه مستقبل لا يعرفه بعد.

كان التاريخ يكتب شيئًا أكبر منهما. أما هما، فكانا يحاولان فقط أن يعيشا داخله.

وهكذا، بين حقيقة محفوظة في مصدر ، وتفصيل غاب عن الوثيقة، بقيت نيلوفر خاتون في الذاكرة بوصفها امرأة عبرت بين عالمين ، وبقي أورخان بوصفه رجلًا كان يمشي على تخوم عالم يتغير.

ولعل أجمل ما يمكن أن نفعله أمام مثل هذه الحكايات ألا نملأ صمت التاريخ بيقين زائف، بل أن نترك للغموض حقه.

فبعض القصص لا تحتاج إلى أن نعرف كل ما حدث فيها. يكفي أن نعرف أنها حدثت في زمن كان الإنسان فيه يعيش على حافة السيف، وأن قلبه، رغم ذلك، ظل يبحث عن مكان آمن يسميه بيتًا.

الأناضول بين عالمين

أورخان، نيلوفر، والمدينة التي كانت تتعلم اسمها الجديد

لم يكن أورخان قد وُلد في عالم مستقر ، بل في أرض كانت تبدّل ملامحها ببطء ، كما لو أن الأناضول نفسها لم تكن تعرف بعد أيّ مستقبل ينتظرها. في أواخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر ، كانت آسيا الصغرى مسرحًا لتحولات عميقة. الإمبراطورية البيزنطية ، التي حكمت هذه البلاد قرونًا طويلة ، أخذت تنكمش داخل مدنها وقلاعها ، بينما كانت الإمارات التركمانية تتقدم من الداخل ، لا دفعة واحدة ، بل في موجات متتابعة ، تتقدم حينًا وتتراجع حينًا ، ثم تعود أكثر رسوخًا.

كانت القلاع البيزنطية في شمال غربي الأناضول تبدو من بعيد مثل جزر حجرية في بحر متحرك. لكل قلعة سور ، ولكل سور حارس ، ولكل حارس عائلة تنتظر عودته مساءً. خلف الأبراج العالية كانت النساء يراقبن الطرق ، والأطفال يتعلمون أسماء المدن التي سقطت قبل أن يتعلموا أسماء الأزهار. كان الخوف جزءًا من الحياة اليومية ، حتى إن الناس لم يعودوا يعرفون هل الحرب تصل إلى أبوابهم ، أم أن أبوابهم هي التي أصبحت جزءًا من الحرب.

أما في الجهة الأخرى ، فكان التركمان يعيشون حياة مختلفة. الخيام ، والقطعان ، والخيول ، ومجالس الرجال ، ونساء القبائل اللواتي يحملن في أيديهن تفاصيل الحياة الصغيرة ، من الغزل والخبز إلى تربية الأطفال ، كانت كلها تنتمي إلى عالم يبدو بسيطًا من الخارج ، لكنه كان يخفي داخله تغيرًا سياسيًا هائلًا.

لم تكن القبائل تعرف ، وهي تنتقل من مرعى إلى آخر ، أنها تشارك في ولادة كيان سياسي سيصبح بعد عقود دولة. ولم يكن الرجال الذين حملوا السيوف على ظهور الخيل يعرفون أن أبناءهم سيحتاجون

يومًا إلى الأقلام والسجلات والضرائب والقوانين أكثر مما سيحتاجون إلى السيوف.

وفي هذا المناخ نشأ أورخان.

كان ابن عثمان، الرجل الذي ارتبط اسمه ببداية الإمارة العثمانية ، لكنه لم يرث عن أبيه السيف وحده. ورث سؤالًا أصعب : ماذا يفعل الرجل حين تتحول الغزوة إلى دولة ؟

كان يمكن فتح القلعة بالقوة ، لكن ماذا يحدث في صباح اليوم التالي ؟ من يحكم أهلها ؟ من يجمع الضرائب ؟ من يحمي الأسواق ؟ من يعيد تشغيل الأفران ؟ من يطمئن الفلاحين إلى أن الجنود لن يأخذوا آخر ما لديهم ؟

كانت تلك الأسئلة هي التي بدأت تميز أورخان عن رجال الحرب الذين سبقوه. كان يجلس أحيانًا في صمت ، يستمع إلى حديث أبيه عن الحدود والمدن والفرسان. وكان يعرف أن الرجل الذي يستطيع أن يربح معركة ليس بالضرورة قادرًا على بناء مدينة.

وفي إحدى الليالي ، بحسب إعادة بناء أدبية محتملة لذلك العالم ، جلس أورخان إلى أبيه قرب نار ضعيفة.

قال عثمان : أتظن أن المدينة تسقط حين يسقط سورها ؟

نظر أورخان إلى النار قبل أن يجيب : لا. أظن أنها تسقط حين يفقد أهلها الثقة في الغد.

ابتسم عثمان قليلًا ، ثم قال : ومن أين تعلمت ذلك ؟

من الذين يعيشون داخل الأسوار.

ظل الأب صامتًا. كان يعرف أن ابنه بدأ يرى شيئًا لم تكن الحرب تعلّمه بسهولة : أن السكان ليسوا غنيمة ، وأن الأرض لا تصبح وطنًا بمجرد أن يرفع رجل راية فوق برج.

كان ذلك التحول جزءًا من تاريخ أوسع. فالإمارات التركمانية لم تكن تتوسع بالسلاح فقط ، بل كانت تعيد ترتيب علاقاتها بالسكان المحليين ، وبالأسر البيزنطية ، وبالقادة والوجهاء ، وبالمدن التي أصبحت تقع على تخوم عالمين.

ومن هنا أصبحت المصاهرات السياسية وسيلة من وسائل بناء الاستقرار.

فالزواج في ذلك العصر لم يكن دائمًا شأنًا خاصًا بين رجل وامرأة. كان يمكن أن يكون اتفاقًا بين عائلتين ، أو جسرًا بين جماعتين ، أو محاولة لتخفيف التوتر بين قوتين متجاورتين. خلف حفلات الزواج والذهب والحرير كانت تتحرك حسابات السياسة ، وكان القلب ، أحيانًا ، يجد نفسه داخل معادلة أكبر منه.

وفي هذه المنطقة بالذات ظهرت نيلوفر خاتون في الذاكرة العثمانية.

تحيط بنيلوفر روايات متعددة ، واختلفت الأخبار اللاحقة في تفاصيل أصلها وقصتها ، ولذلك يصعب فصل التاريخ الموثق عن الذاكرة الشعبية التي نسجت حولها مع الزمن. لكن حضورها في الرواية العثمانية يكشف شيئًا مهمًا : أن المرأة لم تكن دائمًا هامشًا في عملية تشكل الدولة ، حتى لو كتبت السجلات القديمة تاريخ الرجال بصورة أوضح.

في الحكاية الأدبية ، يمكن تخيل نيلوفر وهي تنظر إلى مدينة من خلف نافذة صغيرة ، مدينة لا تعرف بعد بأي اسم ستُعرف في المستقبل.

لم تكن ترى الجيوش وحدها. كانت ترى الخباز، والبائع ، والمرأة التي تحمل الماء ، والصبي الذي يركض في السوق ، والجندي الذي يشتاق إلى قريته. كانت تفهم ، ربما أكثر مما يفهم الرجال في مجالسهم ، أن التاريخ الكبير ينزل في النهاية إلى الشوارع الضيقة ، وإلى مطبخ صغير ، وإلى أم تنتظر ابنها.

حين التقت بأورخان ، لم يكن الحوار بينهما حديثًا عن الممالك فقط.

قالت له : أنتم الرجال تحبون أن تسموا كل شيء فتحًا.

أجاب : لأننا نحتاج إلى أسماء للأشياء التي نفعلها.

وماذا تسمون ما يحدث للناس ؟

توقف أورخان.

قالت : حين يدخل جيش مدينة ، يقول الرجال إن المدينة فُتحت. لكن المرأة التي أغلقت بابها طوال الليل لا تفكر في الفتح. تفكر : هل سيكون الغد أكثر أمنًا ؟

لم يجبها سريعًا.

كانت تلك الجملة ، في جوهرها ، تلخص المشكلة التي واجهت كل سلطة صاعدة : كيف تنتقل من منطق الغلبة إلى منطق الحكم ؟

فالدولة لا تبدأ عندما تنتصر الجيوش فقط. تبدأ عندما يصبح للناس سبب يجعلهم يقبلون صباح اليوم التالي.

وكان أورخان يعيش هذه المسافة بين عالمين. عالم والده ، حيث كانت القوة وسيلة أساسية للحركة والتوسع ، وعالم جديد يحتاج إلى الإدارة والتنظيم والعملة والمؤسسات. ولهذا ارتبط عهده، تاريخيًا ، بتطورات مهمة في بناء الإمارة العثمانية وتحولها إلى كيان أكثر تنظيمًا.

كانت المدن نقطة التحول الأساسية. فالمدينة ليست مجرد بيوت متجاورة. إنها ذاكرة وأسواق وكنائس ومساجد وحمامات وورش ومخازن وسجلات. وحين تتغير السلطة ، لا تختفي هذه الأشياء في يوم واحد. تبقى ، لكنها تبدأ في التعايش مع نظام جديد.

كان البيزنطي الذي يستيقظ في صباح يوم جديد يريد أن يعرف شيئًا بسيطًا : هل سيظل بيته قائمًا ؟ وكان التاجر يريد أن يعرف: هل يمكنه فتح متجره ؟ وكان الفلاح يريد أن يعرف: كم سيأخذ الحاكم من محصوله ؟ وكان الجندي يريد أن يعرف: هل ستكون هناك حرب غدًا ؟

من هذه الأسئلة الصغيرة كانت الدولة تُبنى.

وفي أحد المشاهد التي يمكن تخيلها داخل هذا العالم ، وقف أورخان في سوق مدينة بعد دخولها إلى سلطته. كانت المحال قد فتحت أبوابها بحذر. وجوه السكان لم تكن فرحة ، لكنها لم تكن مذعورة أيضًا.

قال أحد رجاله : ينبغي أن نضع حامية أكبر هنا.

سأل أورخان : لماذا ؟

لأنهم لا يزالون يخافون منا.

نظر إلى السوق وقال : إذا احتجنا إلى مائة رجل لكي نجعلهم يطمئنون، فمعنى ذلك أننا لم ننجح بعد.

ثم أضاف : اجعلوا الحراس عند البوابات، لا في قلوب الناس.

كانت العبارة ، سواء قيلت بهذه الصورة أم لا ، تعبر عن التحول الذي احتاجه المشروع العثماني الناشئ : الانتقال من مجتمع حرب إلى دولة تستطيع أن تدير التنوع وتستفيد منه.

وكانت نيلوفر ، في هذه الحكاية ، ترى ذلك التحول من زاوية مختلفة.

كانت تعرف أن السلطة لا تعني شيئًا للمرأة التي تبحث عن الخبز لأطفالها إذا بقيت الطرق خطرة. وكانت تعرف أن المدينة لا تصبح جديدة لأن راية جديدة ارتفعت فوق سورها. فالمدينة تحتاج إلى وقت كي تتعلم الخوف الجديد، ثم كي تنساه.

ومع مرور السنوات بدأت الأناضول نفسها تبدو أقل شبهًا بالعالم الذي وُلد فيه أورخان. لم تختفِ بيزنطة فجأة ، ولم تظهر الدولة العثمانية مكتملة في صباح واحد. كان التاريخ أكثر بطئًا من ذلك. كان عالم قديم يتراجع خطوة ، وعالم جديد يتقدم خطوة ، وبينهما عاش أناس لم يكونوا يعرفون أنهم يعيشون في لحظة تاريخية.

وهنا تكمن مأساة التاريخ وجماله معًا.

فالناس الذين يصنعون التحولات الكبرى لا يعرفون عادة أنهم يفعلون ذلك. الفلاح الذي يزرع حقله لا يعرف أنه يعيش على حدود إمبراطورية آخذة في التغير. والمرأة التي تنسج ثوب طفلها لا تعرف أن حفيد ذلك الطفل قد ينتمي إلى دولة مختلفة. والجندي الذي يقف على السور لا يعرف أن السور الذي يحرسه سيصبح بعد سنوات جزءًا من ذاكرة مدينة أخرى.

كان أورخان يعرف شيئًا واحدًا : أن السيف يمكن أن يفتح الطريق ، لكنه لا يستطيع أن يمشي فيه إلى الأبد.

ولهذا كان عليه أن يتعلم لغة أخرى ؛ لغة المدن ، والسجلات ، والتحالفات ، والمصاهرات ، والضرائب ، والأسواق.

أما نيلوفر فكانت تمثل ، في الذاكرة الأدبية ، الوجه الآخر لهذه العملية : الوجه الإنساني الذي لا يظهر في خرائط الفتوحات.

فبينما كان الرجال يرسمون الحدود ، كانت النساء يعشن داخلها.

وبينما كان المؤرخون يسجلون أسماء السلاطين ، كانت الذاكرة الشعبية تحتفظ بأسماء النساء اللواتي عبرن من عالم إلى آخر ، وحملن معهن لغات وعادات وذكريات لم تختفِ تمامًا.

لهذا فإن قصة الأناضول في زمن أورخان ليست قصة انتصار طرف على طرف فحسب. إنها قصة اختلاط عالمين ، وامتزاج ذاكرتين ، وولادة مجتمع جديد من بين شقوق مجتمع قديم.

كانت القلاع تسقط ، نعم ، لكن المدن بقيت.

وكانت الرايات تتغير، لكن الأسواق ظلت تفتح أبوابها كل صباح.

وكان الرجال يموتون في الحروب ، بينما تستمر النساء في إعداد الخبز ، وتربية الأطفال ، ونقل الحكايات من جيل إلى جيل.

وفي تلك التفاصيل الصغيرة كان التاريخ الحقيقي يتحرك.

ربما لهذا لا يمكن فهم أورخان باعتباره محاربًا فقط. كان رجلًا يقف عند عتبة زمنين : وراءه عالم القبيلة والحدود والسيف ، وأمامه عالم الدولة والمدينة والمؤسسة. وبين العالمين كان عليه أن يتعلم أن القوة التي لا تتحول إلى نظام تموت مع صاحبها.

أما نيلوفر، سواء أكانت التفاصيل التي أحاطت بها الروايات المتأخرة دقيقة كلها أم لا ، فقد بقيت في الذاكرة رمزًا لشيء أعمق من سيرتها الشخصية : لحظة انتقال الأناضول من عالم إلى آخر ، حين لم يعد التاريخ مجرد حرب بين إمبراطوريتين ، بل أصبح عملية طويلة من التعايش والتحول وإعادة تشكيل الهوية.

وهكذا ، في شمال غربي الأناضول ، حيث كانت القلاع تنظر إلى السهول ، والسهول تنظر إلى القلاع ، بدأ عالم جديد يتكون ببطء.

لم يكن أحد يسمع صوته وهو يولد.

لكن بعد سنوات ، حين التفت الناس إلى الوراء ، اكتشفوا أن كل شيء كان قد بدأ هناك : في طريق بين قلعتين ، في سوق صغير ، في زواج سياسي ، في حديث قصير قرب النار ، وفي قلب رجل أدرك أن فتح الأرض أسهل بكثير من كسب الإنسان الذي يعيش عليها.

هولوفيرا
المرأة التي عبرت من أسوار بيزنطة إلى قلب التاريخ العثماني

بين المرأة التي عرفها التاريخ والمرأة التي اخترعها الرواة

من هي هولوفيرا ؟

يبدو السؤال ، للوهلة الأولى ، بسيطًا. اسم امرأة، قلعة ، زواج ، ثم انتقال من عالم إلى عالم. لكن التاريخ ، حين يقترب من النساء اللواتي عشن في زمن التحولات الكبرى ، لا يترك لنا دائمًا سوى ظلالهن. أما حياتهن الحقيقية فتختبئ في الفراغات بين السطور ، في اختلاف الأسماء ، وفي الروايات التي كتبها رجال جاءوا بعدهن بسنوات طويلة.

تُعرف هولوفيرا في الرواية العثمانية التقليدية بوصفها ابنة أحد حكام القلاع البيزنطية في منطقة يار حصار ، وقد ارتبط اسمها لاحقًا بنيلوفر خاتون ، زوجة أورخان غازي وأم السلطان مراد الأول . وتروي المصادر العثمانية المتأخرة أنها كانت مخطوبة لحاكم بليجيك ، وأن عثمان غازي أغار على موكب زفافها ، فأُسرت ثم تزوجها ابنه أورخان.

غير أن هذه الرواية ، على شهرتها ، ليست حقيقة تاريخية مكتملة الأركان. فالمصادر البيزنطية المعاصرة لا تقدم ما يكفي لتأكيد قصة الاختطاف والزواج بالصورة التي وصلت إلينا ، كما أن الدراسات الحديثة لاحظت تناقضات زمنية مهمة في الرواية التقليدية . وتذهب موسوعة الدراسات الإسلامية التركية إلى أن اسم هولوفير ا نفسه نُسب

إلى نيلوفر في بعض الدراسات ، بينما تظل هوية المرأة التي تحمل هذه القصة موضع نقاش. كما أن ابن بطوطة ، حين زار الأناضول في ثلاثينيات القرن الرابع عشر ، ذكر امرأة من بيت أورخان في إزنيق باسم قريب من «بيلون» ، وهو ما فتح بابًا آخر للمقارنة والجدل حول هويتها.

ولهذا فإن السؤال الأدق ليس : «هل كانت هولوفيرا موجودة بهذه الصورة ؟» بل :**كيف ولدت صورة هولوفيرا في الذاكرة التاريخية ؟**

هنا يبدأ التاريخ في الاقتراب من الأدب.

طفلة خلف الجدار

لنتخيل حصار في السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر.

لم تكن القلعة آنذاك مجرد بناء حجري يحتمي به الجنود. كانت عالمًا كاملًا. في داخلها بيوت صغيرة ، مخازن للحبوب ، كنيسة ، ساحة يمر فيها الخدم والجنود ، وأبراج تطل على الطرق القادمة من السهول. وكانت الحياة خلف الأسوار تبدو مستقرة لمن يعيش فيها ، حتى يأتي خبر من الخارج فيكسر هذا الوهم.

في مثل هذا المكان يمكن أن نتخيل طفولة هولوفيرا.

لم تكن تعرف ، وهي طفلة ، أن العالم الذي يحيط بها كان ينهار ببطء. كانت تعرف الأشياء القريبة فقط: صوت أمها ، رائحة الخبز ، صرير الأبواب الخشبية ، وقع خطوات أبيها في الممر ، والضوء الذي يدخل من نافذة عالية عند الغروب.

لكنها كانت تسمع أيضًا كلمات لم تكن تفهمها تمامًا.

التركمان ، عثمان ، بليجيك ، الحامية. ، الحدود .

كانت تلك الكلمات ، بالنسبة إلى طفلة في قلعة بيزنطية ، أشبه بأسماء عواصف بعيدة. لا ترى العاصفة ، لكنها تعرف من وجه أبيها أنها موجودة.

كان والدها ، وفق الرواية التقليدية ، من حكام المنطقة. ولم يكن الحاكم في تلك البلاد رجلًا يعيش بعيدًا عن الخطر ؛ كان الخطر يسكن معه. رسالة تصل من قلعة مجاورة قد تعني أن الطريق لم يعد آمنًا. قافلة لا تصل في موعدها قد تكون علامة على غارة. رسول يأتي على ظهر فرس متعب قد يحمل خبرًا عن تحالف جديد.

وكانت القلاع الحدودية تعرف شيئًا لا تعرفه القصور البعيدة : أن التاريخ لا يدخل من الباب الكبير دائمًا . أحيانًا يأتي في صورة فارس واحد، أو في صورة غبار يرتفع خلف التلال.

ربما كانت هولوفيرا تقف عند نافذة القلعة وتنظر إلى ذلك الغبار.

وربما كانت تسأل : من هناك ؟

فيجيبها أحد الخدم : لا شيء يا سيدتي.

لكن الأطفال يشعرون بالكذب قبل أن يتعلموا معناه.

عالم يتغير من دون أن يستأذن

كان البيزنطيون في الأناضول يعيشون في زمن تقلصت فيه المسافات بين الحرب والحياة اليومية. ولم يكن ظهور القوى التركمانية مجرد حادث عسكري عابر ؛ فقد كانت الحدود نفسها تتغير ، والسلطة تنتقل من يد إلى أخرى ، وتتشكل حول القلاع مدن وأسواق وتحالفات جديدة.

وفي هذا العالم لم يكن الزواج شأنًا شخصيًا خالصًا.

كان الزواج يستطيع أن يصنع هدنة ، أو يثبت تحالفًا ، أو يربط عائلتين ، أو يمنح رجلًا شرعية جديدة. ولهذا فإن الرواية التي تربط هولوفيرا بموكب زفاف ليست مجرد حكاية رومانسية عن عروس اختُطفت في الطريق. إنها ، حتى لو لم نملك الدليل الكافي على تفاصيلها ، تعكس عالمًا كانت فيه أجساد النساء وأسماء العائلات جزءًا من لغة السياسة.

هنا يصبح الخيال التاريخي أكثر حذرًا.

لا نستطيع أن نقول إن هولوفيرا شعرت بكذا أو قالت كذا. لكننا نستطيع أن نتساءل : ماذا كان يعني لفتاة نشأت في قلعة أن تجد نفسها فجأة خارجها ؟

ربما كان أصعب ما في الأمر أنها لم تفقد بيتها فقط. لقد فقدت معنى البيت.

فالقلعة التي كانت تراها من بعيد ظلت واقفة. الأبراج لم تسقط في ذاكرتها. الطرق بقيت في مكانها. الأشجار نفسها ربما ظلت تنمو حولها.

لكنها هي تغيرت.

والإنسان، حين يتغير، تصبح الأماكن القديمة أكثر قسوة من الأماكن الجديدة.

يوم انكسرت النافذة

تروي الرواية العثمانية أن عثمان غازي استولى على بليجيك ويار حصار، وأن ابنة حاكم يار حصار كانت في طريقها إلى زفافها حين وقع الهجوم. ثم انتقلت إلى بيت أورخان، وأصبح اسمها نيلوفر.

هذه الصورة مشهورة، وقد نقلتها مصادر عثمانية مبكرة مثل عاشق باشا زاده ، ثم كررتها مصادر أخرى. إلا أن الباحثين لاحظوا أن القصة لا يمكن إثباتها من المصادر البيزنطية ، وأن بعض عناصرها قد تكون نتيجة جمع روايات متفرقة عن زوجات أورخان في شخصية واحدة. كما أن التسلسل الزمني المتعلق بأمومة نيلوفر لمراد الأول يثير مشكلات عند مقارنته بالوثائق المبكرة.

لذلك يمكن أن نروي المشهد أدبيًا، ولكن يجب ألا نقدمه بوصفه محضرًا تاريخيًا.

في تلك الليلة المتخيلة ، لم تكن هولوفيرا تعرف أن الرجال الذين اقتربوا من الموكب سيغيرون اسمها. كانت تعرف فقط أن الخيل اضطربت. وأن النساء صرخن. وأن الرجال الذين كانوا قبل لحظات يتحدثون عن الزواج بدأوا يتحدثون عن النجاة.

وسط الضجيج، ربما بحثت عن وجه مألوف.

لكن التاريخ لا يمنح الإنسان دائمًا الوقت الكافي للبحث.

وعندما انتهى كل شيء، لم يعد هناك موكب. لم تعد هناك أغنيات زفاف. لم تعد هناك طريق واضحة إلى البيت. كان هناك فقط طريق آخر.

هولوفيرا أم نيلوفر ؟

الأسماء في التاريخ ليست بريئة.

قد يبدو تغيير الاسم أمرًا بسيطًا، لكنه في حياة الإنسان قد يكون إعلانًا عن بداية حياة جديدة.

تذكر الروايات أن هولوفيرا أصبحت نيلوفر بعد دخولها العالم الإسلامي. ويُعتقد في بعض الدراسات أن اسم «هولوفيرا» أو «أوليفيرا»

ارتبط باسم نيلوفر ، بينما يرى آخرون أن التشابه اللغوي لا يكفي وحده لإثبات الهوية. وتذكر المصادر العثمانية اسمها بصيغ متعددة ، مثل لولوفَر أو أُلوفَر، في حين ارتبط بها لاحقًا اسم نيلوفر، الذي يعني زهر الماء.

وهنا يمكن أن نتخيل حوارًا لم تحفظه الكتب.

قالت له : هل تريدني أن أنسى اسمي ؟

أجاب أورخان : لا.

إذن لماذا أعطيتني اسمًا آخر ؟

صمت قليلًا.

ثم قال : لأن الناس يسمون الأشياء حين تدخل حياتهم .

نظرت إليه طويلًا.

والإنسان ؟

لم يجب.

كان السؤال أكبر من الرجل.

فالأسماء لا تمحو الماضي. إنها تغطيه فقط بطبقة جديدة من المعنى.

هولوفيرا لم تختفِ تمامًا خلف نيلوفر. بقيت هناك ، في مكان ما داخل المرأة الجديدة ، مثل صوت بعيد يأتي من غرفة مغلقة.

المرأة التي أصبحت جزءًا من مدينة

إذا كان الجانب الأول من قصة هولوفيرا مرتبطًا بالأسْر والانتقال ، فإن الجانب الثاني أكثر هدوءًا : انتقالها من امرأة تحيط بها الروايات إلى امرأة تركت أثرًا اجتماعيًا ومؤسسيًا.

تذكر المصادر أن نيلوفر ارتبطت بإزنيق ، وأنها عُرفت بأعمال خيرية، ونُسب إليها إنشاء منشآت دينية وخيرية وجسر على مجرى الماء الذي حمل اسمها لاحقًا. كما شُيّد في إزنيق إِ مارت باسمها في عهد ابنها مراد الأول، في أواخر القرن الرابع عشر. وتوجد اليوم إشارات إلى ضريحها في مجمع أورخان غازي في بورصة.

وهنا تتغير صورة المرأة. لم تعد الفتاة التي كانت تسير في موكب زفاف. أصبحت امرأة تُقاس آثارها بما تركته في المدينة.

الجسر أكثر دوامًا من الحكاية. الماء أكثر صدقًا من الرواة. والحجارة لا تتذكر دائمًا من بناها، لكنها تظل واقفة لتقول إن يدًا بشرية مرت من هنا.

تكون هذه هي المفارقة الأجمل في قصة نيلوفر: أن التاريخ حفظ لنا حادثة محتملة عن فقدانها لحريتها ، ثم حفظ آثارًا أخرى عن امرأة أصبحت قادرة على الإنشاء والعطاء وترك الأثر.

أم السلطان

يصبح اسم نيلوفر أكثر وضوحًا حين يرتبط بابنها مراد الأول.

فالمصادر تجعلها أمًا للسلطان الذي سيصبح ثالث حكام الدولة العثمانية. لكن حتى هذه المعلومة ، التي تبدو أكثر ثباتًا ، لا تخلو من مشكلات عند دراسة التواريخ والوثائق المبكرة. وتشير الدراسات إلى أن نيلوفر كانت زوجة لأورخان ، وأن أمومتها لمراد الأول ثابتة بدرجة أقوى ، بينما تبقى نسبة أبناء آخرين إليها ، مثل سليمان، موضع إشكال.

وهكذا تصبح المرأة التي بدأت قصتها في الرواية باعتبارها «عروسًا أسيرة» أمًا لرجل سيحكم دولة تتوسع خارج الأناضول.

وهنا يظهر سؤال آخر :

هل كانت هولوفيرا تفكر في المستقبل الذي سيأتي من ابنها ؟

غالبًا لا.

فالأمهات لا يعرفن مستقبل أبنائهن حين ينامون أمامهن أطفالًا.

ربما كانت تنظر إلى مراد، كما تنظر كل أم إلى طفلها ، لا إلى السلطان الذي سيصبحه.

وربما كانت تقول له : لا تكن قاسيًا.

فيجيب الطفل : لماذا ؟

فتقول : لأن العالم قاسٍ بما يكفي .

قد لا يكون هذا الحوار قد حدث.

لكنه يختصر شيئًا من الحقيقة الإنسانية التي تعجز الوثائق عن تسجيلها.

المرأة التي بقيت بين اسمين

من هي هولوفيرا إذن ؟

هي ، في التاريخ الصارم ، شخصية يحيط بها الغموض. ارتبط اسمها تقليديًا بنيلوفر خاتون، زوجة أورخان وأم مراد الأول، وبقصة ابنة حاكم يار حصار التي وقعت في الأسر في أثناء الاضطرابات التي رافقت صعود القوة العثمانية. لكن تفاصيل هذه القصة لا يمكن التعامل معها كلها بوصفها حقائق يقينية؛ فالمصادر متأخرة ، والروايات متعارضة ، والمصادر البيزنطية لا تقدم التأييد الكافي للقصة في صورتها الشعبية.

أما في الأدب، فهي أكثر من ذلك.

هي فتاة تقف خلف جدار وتنظر إلى عالم يتغير. هي امرأة تحمل اسمين، وذاكرتين، وربما وطنين. هي صورة للحدود حين تتحول من خط على الخريطة إلى جرح في قلب الإنسان. وهي، قبل أن تكون أم سلطان أو زوجة أمير، امرأة عاشت في زمن لم تكن فيه للنساء فرصة كبيرة لكتابة قصتهن بأنفسهن.

لذلك كتب الآخرون قصتها.

بعضهم جعلها أميرة. بعضهم جعلها أسيرة. بعضهم جعلها عاشقة. وبعضهم جعلها جسرًا بين بيزنطة والدولة العثمانية.

لكن ربما كانت الحقيقة أبسط وأعمق من كل ذلك.

كانت امرأة وجدت نفسها في لحظة تاريخية لا ترحم ، ثم عاشت داخل العالم الجديد الذي خرج من تلك اللحظة.

وعندما ننظر اليوم إلى اسم نيلوفر، وإلى الماء الذي حمل اسمها، وإلى المنشآت التي ارتبطت بها، لا نرى فقط امرأة غامضة من القرن الرابع عشر.

نرى أثر إنسان استطاع ، وسط اضطراب الحدود والحروب وتبدل الأسماء ، أن يتحول من موضوع في رواية الآخرين إلى جزء من ذاكرة مدينة.

ولعل هذا هو المعنى الأخير لهولوفيرا.

أن الإنسان قد يفقد المكان ، لكنه يستطيع أحيانًا أن يترك مكانًا آخر في العالم. وقد يضيع اسمه الأول، لكن يبقى منه شيء لا تستطيع الحروب محوه. مثل زهرة ماء تطفو فوق نهر مضطرب، لا توقف جريانه، ولا تغير اتجاهه، لكنها تجعل الماء، ولو للحظة، يبدو كأنه يتذكر.

العرس الذي تحوّل إلى نقطة فاصلة
هولوفيرا بين الرواية الشعبية والذاكرة التاريخية

حين تتقاطع الحكاية مع التاريخ

تبدأ بعض التحولات الكبرى في التاريخ من مشاهد تبدو، للوهلة الأولى، عادية. عرس في قلعة ، موسيقى في ساحة ، نساء يحملن الهدايا ، رجال يتبادلون التحيات ، وخيول مربوطة عند الأبواب. لا أحد ، في تلك اللحظة ، يعرف أن يومًا عابرًا يمكن أن يصبح بعد قرون جزءًا من ذاكرة شعب ، وأن شخصًا يدخل المكان ضيفًا أو خصمًا قد يخرج منه وقد تغير موقعه في الحكاية.

ترتبط بعض الروايات المتأخرة بقصة هولوفيرا ، المعروفة في الذاكرة العثمانية باسم نيلوفر خاتون ، بحفل زفاف أقيم في منطقة ليفت، وتذهب روايات شعبية إلى أن أورخان بن عثمان حضر في سياق عملية عسكرية استهدفت خصومه ، وأن هولوفيرا كانت ضمن موكب العرس. غير أن المؤرخ حين يقترب من هذه القصة يجد نفسه أمام طبقات متعددة من الرواية : طبقة تاريخية محدودة ، وطبقة شعبية واسعة ، وطبقة أدبية نشأت من رغبة الإنسان في أن يمنح الأحداث القديمة مشاهد واضحة ووجوهًا وحوارات.

وهنا تبرز ضرورة التمييز بين ما ترويه الحكاية وما تثبته المصادر. فالتفاصيل التي تتحدث عن التنكر ، ودخول الجنود إلى الاحتفال ، ثم الانقضاض على الحاضرين ، أصبحت من أكثر عناصر القصة انتشارًا في السرد الشعبي ، لكنها لا يمكن ، منفردة ، أن تُعامل بوصفها حقيقة تاريخية قاطعة. إن غياب الدليل المباشر لا يعني

بالضرورة أن كل شيء مختلق ، كما أن شهرة الرواية لا تجعلها صحيحة بالضرورة.

التاريخ لا يصلنا دائمًا في صورة باب مغلق يمكن فتحه بمفتاح واحد. أحيانًا يصل في صورة نافذة صغيرة ، نرى من خلالها جزءًا من المشهد ، ثم نحتاج إلى الخيال كي نتخيل بقية الغرفة. لكن الخيال، مهما كان خصبًا ، يجب ألا يتنكر في هيئة الوثيقة.

ومن هنا تصبح قصة هولوفيرا مادة مناسبة لقراءة العلاقة بين التاريخ والذاكرة ، وبين الحدث كما ربما وقع ، والحدث كما أرادت الأجيال اللاحقة أن تتذكره.

القلعة في يوم العرس

يمكن أن نتخيل القلعة في ذلك اليوم.

كان الصباح قد بدأ ببطء. ضوء رقيق يهبط على الحجارة القديمة، والهواء يحمل رائحة التراب والخيول والأقمشة الجديدة. ارتفعت الرايات فوق الأبراج ، وتحركت في الريح كأنها تخبر القرى البعيدة أن في الداخل احتفالًا.

في الساحة، كان الرجال منشغلين بالخيول. زُينت بعض الجياد بأقمشة ملونة ، وربطت أجراس صغيرة إلى أطراف اللجام. كانت النساء يدخلن ويخرجن من البيوت ، يحملن الأطباق والهدايا، بينما يتجمع الأطفال عند أطراف الساحة ، يراقبون الكبار دون أن يفهموا لماذا يتصرف الجميع وكأن اليوم مختلف عن سائر الأيام.

لم يكن أحد يفكر في التاريخ. وهذه إحدى مفارقات التاريخ: الناس الذين يصنعونه لا يعرفون، في معظم الأحيان، أنهم يصنعونه.

كان الحراس عند الأبواب يؤدون عملهم المعتاد. ينظرون إلى الداخل والخارج ، يتابعون حركة القادمين ، ويتبادلون كلمات قليلة. وربما فكر أحدهم في أن الليل سيأتي سريعًا ، وأنه سيعود إلى بيته بعد انتهاء الاحتفال.

وفي مكان ما من الموكب كانت هولوفيرا. كانت شابة تنتمي إلى عالم له لغته وعاداته ومخاوفه. لم تكن تعرف ، إذا أخذنا الرواية في بعدها الأدبي ، أن ذلك اليوم سيقسم حياتها إلى ما قبل وما بعد.

قبل العرس كانت ابنة قلعة. بعده ستصبح جزءًا من عالم آخر.

لكن الإنسان لا يشعر بالحد الفاصل في اللحظة التي يعبره فيها. نحن نفهم التحولات الكبرى بعد وقوعها. أما حين نعيشها، فإنها تبدو مثل بقية الأيام.

ثانيًا: هولوفيرا بين عالمين

من الصعب أن نعرف ما الذي كانت هولوفيرا تفكر فيه فعلًا. المصادر التاريخية لا تمنحنا يومياتها ، ولا تحفظ لنا كلماتها الخاصة ، ولا تخبرنا بما كانت تشعر به تجاه الرجال الذين كانوا يقتربون من عالمها. ولذلك فإن أي حديث عن مشاعرها يجب أن يبقى في دائرة التخيل الأدبي.

لكن هذا التخيل يمكن أن يساعدنا على فهم طبيعة التحول.

ربما كانت تنظر إلى ما حولها بعين فتاة تعرف المكان جيدًا. تعرف الحجارة ، والباب ، والنافذة ، وصوت النساء في البيوت. تعرف الوجوه التي مرت بها منذ طفولتها. ثم يظهر أمامها ، فجأة ، رجال ينتمون إلى عالم آخر ؛ عالم يتحرك بقوة السلاح ، ويتقدم خطوة بعد خطوة نحو مدن وقرى وقلاع كانت تبدو مستقلة عن مصيره.

يمكن للإنسان أن يخاف من شيء لم يحدث بعد. وربما كان ذلك الخوف هو أول ما شعرت به.

في الرواية الأدبية ، يمكن أن نتخيل لحظة قصيرة تلتقي فيها عيناها بعيني أورخان. لا ينبغي لنا أن نعامل هذه اللحظة بوصفها واقعة موثقة ، وإنما بوصفها صورة تساعد على الاقتراب من المعنى الإنساني للقصة.

قالت في خيالنا : من أنت ؟

نظر إليها الرجل لحظة قبل أن يجيب : رجل جاء من الجهة الأخرى من الجبل.

سألته : وهل كل من يأتي من هناك يحمل سيفًا ؟

ابتسم، وقال :

بعضنا يحمل سيفًا ، وبعضنا يحمل مستقبلًا لا يعرف كيف سيكون.

لم تفهم الجملة كلها. وربما لم يفهمها هو أيضًا.

وهذا ما يجعلها جملة مناسبة للحظة التاريخية المتخيلة: لا أحد يعرف المستقبل ، لكن الجميع يتحرك نحوه.

ثم ارتفعت أصوات الرجال في الساحة ، وضاعت الكلمات القصيرة بين وقع الأقدام وصهيل الخيل.

لم يكن بينهما حديث طويل. وربما لم يكن هناك وقت لذلك أصلًا.

من الحفل إلى التحول

في الروايات الشعبية ، يتحول العرس إلى نقطة انفجار. الاحتفال الذي كان يفترض أن يكون مساحة للفرح يصبح مدخلًا إلى الخوف ، ويتحول الضيف أو القادم الغريب إلى قوة تغير مصائر الموجودين.

هذه الصورة تحمل معنى يتجاوز الحكاية نفسها.

فالعرس في المجتمعات القديمة لم يكن مجرد احتفال عائلي. كان مناسبة اجتماعية وسياسية في الوقت نفسه. تتقاطع فيه القرابة ، والتحالفات ، والمكانة ، والسلطة ، وتظهر فيه العلاقات بين الجماعات. ولذلك فإن وقوع اضطراب أو هجوم في مثل هذا السياق يعني أكثر من مجرد اقتحام مكان ؛ إنه اقتحام لنظام اجتماعي كامل.

ومن هذه الزاوية يمكن فهم قوة الرواية الشعبية التي ربطت هولوفيرا بالتحول السياسي والعسكري في المنطقة.

لقد أصبحت المرأة في القصة رمزًا للانتقال بين عالمين. إنها لا تمثل نفسها فقط، بل تمثل، في الذاكرة اللاحقة، انتقالًا من مجتمع إلى مجتمع، ومن سلطة إلى سلطة، ومن هوية إلى هوية.

وهنا تكمن قوة السرد التاريخي الشعبي.

فهو لا يحتفظ بالأحداث كما وقعت بالضرورة ، بل يحتفظ بها كما كان الناس بحاجة إلى فهمها.

المرأة التي عبرت الحدود

إذا تركنا جانبًا التفاصيل التي لا يمكن إثباتها ، فإن شخصية هولوفيرا تظل ذات أهمية في التاريخ العثماني المبكر ، خصوصًا في الذاكرة المرتبطة بنيلوفر خاتون.

والأهم من السؤال: كيف وقعت الحادثة ؟ هو سؤال آخر: لماذا بقيت الحكاية ؟

ربما لأن التاريخ العسكري ، حين يُروى وحده، يبدو مجرد سلسلة من الحصارات والانتصارات والهزائم. أما حين يدخل إليه وجه امرأة، يصبح أكثر قربًا من الإنسان.

القلعة لها أبواب. والحرب لها جيوش. لكن الإنسان له ذاكرة. والذاكرة لا تتذكر الخرائط دائمًا، بل تتذكر الأشخاص.

لهذا ظلت هولوفيرا حاضرة في الروايات التي تتحدث عن أورخان وبدايات تشكل الدولة العثمانية. لقد أصبحت شخصيتها نقطة تلتقي عندها السياسة بالحياة الخاصة. وما كان في الأصل ، إن صح أصل الرواية ، تحولًا في مصير امرأة ، أصبح في الذاكرة صورة عن تحول عصر كامل.

ولعل أكثر ما يثير التأمل هنا أن هولوفيرا ، في لحظة انتقالها، لم تكن تعرف معنى المستقبل الذي ستدخل إليه. نحن الذين ننظر إليها بعد قرون نعرف أنها ستصبح جزءًا من الذاكرة العثمانية ، أما هي فلم تكن تملك هذه المعرفة.

وهذا هو الفارق بين الإنسان والتاريخ. الإنسان يعيش اللحظة. والتاريخ يمنح اللحظة معناها بعد فوات الأوان.

أورخان بين الرجل والتاريخ

أما أورخان ، فتظهر صورته في الرواية بوصفه رجلًا يتحرك بين عالمين : عالم أبيه عثمان ، الذي بدأت في عهده نواة القوة السياسية والعسكرية ، وعالم الدولة التي ستتوسع تدريجيًا بعده.

لكن الشخصية التاريخية ليست دائمًا هي الشخصية التي تصنعها الرواية.

في القصص الشعبية يصبح القائد رجلًا يعرف ما يريد ، ويخطط لكل شيء ، ويدخل الحفل وكأنه يعرف مسبقًا أن تلك اللحظة ستقوده إلى المستقبل. أما التاريخ الفعلي فغالبًا أكثر فوضى. القادة يترددون ، والقرارات تتغير ، والفرص تأتي مصادفة ، والأحداث التي تبدو بعد مئات السنين حتمية لم تكن كذلك في زمنها.

ربما لم يكن أورخان يعرف أن اسمه سيبقى. وربما لم يكن يتصور أن أفعاله ستصبح جزءًا من روايات تُحكى في مدن بعيدة بعد قرون.

وهذا أيضًا جزء من مأساة التاريخ وجماله.

إنسان يتحرك داخل يومه، ثم يأتي الزمن فيضع حوله إطارًا لم يطلبه.

بين الوثيقة والخيال

حين نكتب التاريخ بلغة أدبية، تزداد مسؤوليتنا ولا تقل.

فالخيال قادر على أن يمنح المشهد رائحة وصوتًا وملامح ، لكنه قادر أيضًا على أن يخدع القارئ إذا لم نضع الحدود بوضوح. لذلك يجب أن يبقى الحوار المتخيل حوارًا متخيلًا ، والوصف الأدبي وصفًا أدبيًا ، والرواية الشعبية رواية شعبية.

يمكننا أن نقول: ربما ارتفعت الموسيقى في ساحة القلعة.

لكن لا يمكننا أن نقول إن هولوفيرا قالت جملة محددة ، ثم نقدمها على أنها حقيقة تاريخية ، ما لم يكن لدينا مصدر يثبت ذلك.

إن هذه الحدود لا تقتل الأدب. على العكس، إنها تمنحه صدقه.

فالخيال لا يحتاج إلى الكذب لكي يكون جميلًا. يستطيع أن يقول للقارئ: لا أعرف ماذا قالت تلك المرأة ، ولذلك سأحاول أن أتخيل خوفها. لا أعرف ماذا رأى أورخان في عينيها، ولذلك سأضع بينهما لحظة صامتة. لا أعرف كيف انتهت التفاصيل الدقيقة لذلك اليوم، ولذلك سأترك بعض الأبواب مفتوحة.

في التاريخ، هناك أبواب يجب ألا ندخلها إلا بحذر.

اليوم الذي لم يعرف أنه تاريخ

ربما كانت الشمس قد بدأت تميل عندما انتهى كل شيء.

ربما خفتت الأصوات في الساحة. وربما بقيت بعض الأبواب مفتوحة ، وبعض الأقمشة معلقة في أماكنها ، وبعض الهدايا لم تجد طريقها إلى أصحابها.

أما هولوفيرا ، فقد أصبحت في الرواية امرأة خرجت من عالم ودخلت آخر.

نحن نعرف القصة لأن الزمن احتفظ بجزء منها. لكن الزمن لم يحتفظ بكل شيء. ترك لنا أسماء، وأحداثًا متفرقة ، وروايات شعبية ، ثم طلب منا أن نفهم الصمت الموجود بينها.

ولهذا فإن قصة العرس الذي ارتبط باسم هولوفيرا ليست مجرد حكاية عن امرأة وأمير وقلعة. إنها قصة عن الطريقة التي يولد بها التاريخ من لحظة لا يدرك أصحابها أهميتها.

قد يكون العرس وقع كما تروي بعض الروايات ، وقد تكون التفاصيل قد تغيرت عبر النقل والتذكر. وربما كان الواقع أكثر بساطة من الحكاية ، وربما كان أكثر تعقيدًا. لكن المؤكد أن الذاكرة احتاجت إلى مشهد: قلعة ، وعرس ، وخيول ، وامرأة تقف عند الحد الفاصل بين عالمين.

وفي ذلك المشهد يمكننا أن نفهم شيئًا عن التاريخ نفسه. فالتاريخ ليس فقط ما حدث. إنه أيضًا ما بقي من الذي حدث، وما نسي، وما أُضيف، وما تخيله الناس حين حاولوا أن يملأوا الفراغات.

ولهذا يمكن أن نتوقف، مرة أخيرة، عند هولوفيرا. لا باعتبارها شخصية تعرف مصيرها، ولا باعتبارها بطلة رواية مكتملة، بل باعتبارها إنسانة تقف في لحظة لم تكن تعرف أنها فاصلة.

ربما نظرت إلى القلعة للمرة الأخيرة. ربما سمعت صوتًا مألوفًا من بعيد. وربما لم تفكر في شيء سوى الخوف.

ثم مضت. ومن خلفها بقي العرس. وبقيت القلعة. وبقيت الحكاية.

أما التاريخ، فقد بدأ في مكان آخر، دون أن يعلن عن نفسه.

بين الخَطْف والزواج

هولوفيرا وأورخان في المنطقة الرمادية بين التاريخ والحكاية

امرأة عند حدود عالمين

في التاريخ القديم، لا تصلنا حياة الناس دائمًا كما عاشوها ، بل كما اختار الآخرون أن يتذكروها. وما بين الواقعة والرواية تتسع مساحة غامضة ، تشبه المسافة بين ضوء الفجر وظل الجبل.

هناك ، في تلك المنطقة التي لا يستطيع المؤرخ أن يضيئها كلها ، تظهر حكاية هولوفيرا ، المرأة التي ارتبط اسمها بأورخان ، ابن عثمان ، والتي ستُعرف في الروايات العثمانية اللاحقة باسم نيلوفر خاتون.

تروي بعض الروايات الحديثة أن هولوفيرا تعرضت للخطف ، بينما تقدم روايات أخرى صورتها بوصفها امرأة انتقلت إلى بيت أورخان وتزوجته في سياق من العلاقات والتحالفات التي كانت شائعة في المجتمعات الحدودية. ولا تبدو المسألة بسيطة كما قد توحي بها الكلمات الحديثة. فكلمة «خطف» تحمل في عصرنا معنى قانونيًا وأخلاقيًا واضحًا ، بينما كانت المجتمعات الحدودية في القرون الوسطى أكثر اضطرابًا ، وكانت علاقات الزواج والأسر والتحالف والهجرة والاندماج تتداخل أحيانًا بطريقة يصعب فصل عناصرها بعضها عن بعض.

لهذا ينبغي أن نتعامل مع الحكاية بحذر. فما نعرفه ليس بالضرورة ما حدث لحظة بلحظة ، وما لا نعرفه لا يجوز أن نملأه بادعاء تاريخي. لكن الأدب يستطيع أن يدخل تلك المساحة بشرط ألا يتنكر لحدوده : أن يقول «ربما»، حين يقول التاريخ : ، لا نملك دليلًا كافيًا ، .

وهنا تبدأ حكاية هولوفيرا.

كانت الحدود بين البيزنطيين والعثمانيين في ذلك الزمن أكثر من خط مرسوم على خريطة. كانت منطقة تتحرك فيها الجيوش والقوافل والرعاة والتجار والأسرى والرسل. القرى التي تبدو اليوم ثابتة في كتب التاريخ كانت آنذاك قابلة لأن تستيقظ على راية جديدة ، وأن تنام وهي لا تعرف لمن ستكون في الصباح.

في مثل هذا العالم، لم يكن الزواج شأنًا عائليًا محضًا. كان يمكن أن يكون صلحًا، أو ضمانًا سياسيًا، أو وسيلة لربط جماعتين، أو طريقًا للخروج من حرب. ومع ذلك، فإن السياسة مهما بدت كبيرة في سجلات المؤرخين، لا تستطيع أن تلغي الإنسان الذي يقف في قلبها.

وهولوفيرا كانت إنسانة قبل أن تكون اسمًا في سلسلة الأنساب.

*

السؤال يبدو مباشرًا : هل خُطفت هولوفيرا أم تزوجت أورخان ؟

لكن التاريخ لا يجيب بسهولة.

فالروايات المتأخرة كثيرًا ما تعيد ترتيب الأحداث من أجل منح الماضي صورة أكثر اكتمالًا مما كان عليه في الحقيقة. وفي حالة هولوفيرا ، تختلط الروايات الشفوية بالتقاليد العثمانية اللاحقة ، كما تتداخل قصة انتقالها مع حكايات أخرى عن الغزو والزواج والتحالف.

قد يكون ما حدث عنيفًا في بدايته ثم تحول إلى زواج. وقد يكون الزواج جزءًا من تسوية سياسية لم نفهم تفاصيلها. وقد تكون بعض عناصر القصة قد أضيفت لاحقًا لأن الذاكرة الشعبية تميل إلى تحويل الأحداث المعقدة إلى حكاية يمكن روايتها.

لكن وراء كل احتمال امرأة.

امرأة كانت تعرف بيتًا ، ووجهًا للمدينة ، ورائحة خبز الصباح ، وصوتًا اعتادت أن تسمعه من نافذة ما. ثم وجدت نفسها في عالم آخر.

وهنا لا يعود السؤال التاريخي: «ماذا حدث لها ؟» فقط ، بل يصبح أيضًا : «ماذا يعني أن يتغير العالم من حول إنسان في لحظة واحدة؟«

يمكننا أن نتخيل هولوفيرا في الطريق ، لا بوصف ذلك المشهد حقيقة موثقة، وإنما بوصفه احتمالًا أدبيًا يختبر المعنى الإنساني للقصة.

كانت تنظر إلى الطريق خلفها، ولا تعرف هل كانت تنظر إلى المكان أم إلى نفسها.

قالت في داخلها : » إذا ابتعدتُ كثيرًا، فهل يبقى البيت بيتًا؟«

ثم جاء سؤال آخر أكثر قسوة :

»وإذا عدتُ يومًا، فهل سأكون أنا المرأة التي خرجت منه؟«

لم يكن لديها جواب.

أورخان: ابن الحرب الذي وجد نفسه أمام امرأة

أما أورخان، فكان يعيش في عالم مختلف. كان ابن مشروع سياسي وعسكري يتوسع تدريجيًا في شمال غربي الأناضول ، وكانت حياته مرتبطة بالحرب والإدارة وبناء السلطة أكثر مما ترتبط بالرومانسية التي ستضعها الروايات الحديثة في قلب قصته.

لكن الرجل الذي يظهر في السجلات بوصفه أميرًا أو سلطانًا ليس هو الرجل كله.

هناك ، خلف اللقب، إنسان.

وكان يمكن لأورخان ، مهما كان موقعه السياسي ، أن يدرك أن المرأة التي أصبحت زوجته جاءت من العالم نفسه الذي كانت قواته تصطدم به. وهذا يخلق مفارقة عميقة : كيف يعيش المرء مع شخص كان عالمه ، قبل وقت قصير ، جزءًا من عالم الخصم ؟

يمكن أن نتصور حوارًا بينهما بعد أن هدأ ضجيج الأيام الأولى.

قال أورخان : » أتعرفين ما أخشاه ؟«

نظرت إليه هولوفيرا دون جواب.

»أن تظني أنني أرى فيكِ المدينة التي جئتِ منها«.

قالت : » وأنت؟ ألا ترى فيها؟«

سكت قليلًا.

ثم قال : » أراها فيكِ، نعم. لكنني لا أريد أن أبقى أسيرًا لها«.

ابتسمت ابتسامة صغيرة لم تكن فرحًا.

»وأنا لا أريد أن أبقى أسيرةً للمكان الذي تركته«.

كان ذلك ، في الخيال ، أول اتفاق بينهما. لم يكن اتفاقًا على الحب. بل على الاعتراف.

فالزواج بينهما ، إذا نظرنا إليه في سياقه التاريخي، لا ينبغي اختزاله في قصة عاطفية حديثة. كان الزواج داخل الأسر الحاكمة

والبيئات الحدودية جزءًا من شبكة معقدة من المصالح والصلات. وكانت المرأة تستطيع، في الوقت نفسه ، أن تكون طرفًا في هذه الشبكة وإن لم تكن هي التي تصوغ شروطها السياسية.

ومن هنا تظهر المفارقة : قد يكون الزواج سياسيًا في معناه العام ، لكنه لا يمنع أن تتشكل داخله حياة شخصية حقيقية.

*

أصعب ما في الانتقال ليس الطريق. الطريق ينتهي. الأصعب هو اليوم الذي يبدأ بعده.

تستيقظ المرأة في بيت جديد ، وتسمع أصواتًا جديدة ، وتتعلم أسماء الأشياء بطريقة مختلفة. تتغير العادات ، والملابس ، والطعام ، واللغة المحيطة بها ، وربما حتى طريقة النظر إلى الزمن.

في البداية ، يكون كل شيء غريبًا. ثم يصبح الغريب مألوفًا. ثم، بعد سنوات، قد يصبح المألوف هو الغريب.

وهذه واحدة من أكثر المفارقات الإنسانية قسوة. فالإنسان لا يعيش في المكان فقط ؛ إنه يعيد بناء نفسه داخله.

يمكن تخيل هولوفيرا وهي تقف ذات صباح في مكان مرتفع ، وتنظر إلى الأرض الممتدة أمامها. لم تعد تعرف أين تنتهي البلاد التي جاءت منها وأين تبدأ البلاد التي أصبحت تعيش فيها.

ربما قالت لنفسها: »هل يمكن للإنسان أن يترك وطنه دون أن يترك جزءًا من نفسه؟«

ثم فكرت قليلًا : » أم أن الوطن شيء نحمله معنا، حتى عندما نظن أننا تركناه؟«

لم يكن السؤال فلسفيًا بالنسبة إليها. كان يوميًا. كان في طعامها ، وفي لغتها ، وفي أسماء أبنائها ، وفي الذكريات التي لم تكن تستطيع التخلص منها.

وهنا تتجاوز الحكاية هولوفيرا نفسها. إنها تصبح قصة نساء كثيرات عبر التاريخ انتقلن بين عوالم بسبب الحرب أو الزواج أو السياسة، ثم اضطررن إلى إعادة تعريف أنفسهن داخل المكان الجديد.

من الخطأ أن نضع الزواج والخطف في طرفين متناقضين دائمًا، وكأن أحدهما يلغي الآخر بصورة كاملة. ففي المجتمعات التي كانت الحرب فيها جزءًا من الحياة اليومية ، يمكن أن تبدأ علاقة بالقوة أو الاضطراب ثم يعاد تنظيمها اجتماعيًا من خلال الزواج.

هذا لا يعني أن العنف يصبح زواجًا بمجرد أن يُسمّى كذلك.

ولا يعني أن المرأة تفقد حقها في أن يكون لها صوت أو رغبة أو ذاكرة. بل يعني أن المؤرخ يحتاج إلى التمييز بين **ما نعرفه** و**ما نفترضه**، وبين بنية المجتمع كما كانت، والحكم الأخلاقي الذي نأتي به من حاضرنا.

ومن هذه الزاوية تصبح قصة هولوفيرا أكثر تعقيدًا، لا أقل.

فلو كانت قد تعرضت للخطف، فإن ذلك يضعنا أمام تجربة إنسانية قاسية تتعلق بالفقد والاقتلاع وفقدان السيطرة على المصير. ولو كان انتقالها مرتبطًا بزواج أو تفاوض سياسي ، فإن ذلك لا يحولها إلى شخصية بلا إرادة ، بل يفتح سؤالًا آخر عن مقدار السلطة التي كانت تملكها المرأة في مثل هذه الترتيبات.

وفي الحالتين، تظل هناك مساحة لا يستطيع التاريخ أن يملأها.

ماذا شعرت ؟ ماذا أرادت ؟ هل أحبت ؟ هل خافت ؟ هل ندمت ؟ هل اعتادت ؟

هذه الأسئلة قد لا تجد جوابًا في الوثائق ، ولذلك يجب ألا نقدم الخيال على أنه حقيقة. لكن الأدب يستطيع أن يمنحها صوتًا مؤقتًا ، بشرط أن يظل واضحًا أنه صوت متخيل.

*

مع مرور الزمن ، لم تعد هولوفيرا مجرد امرأة في قصة زواج. ارتبط اسمها باسم نيلوفر خاتون ، وأصبحت في الذاكرة العثمانية شخصية ذات حضور يتجاوز حياتها الخاصة.

وهنا يحدث التحول الذي يمر به كثير من الأشخاص في التاريخ.

الإنسان يموت. أما صورته فتستمر. وكل جيل يعيد رسمها وفق الأسئلة التي يحملها هو.

ربما كانت هولوفيرا ، في حياتها اليومية ، أقل اهتمامًا بما سيقوله المؤرخون عنها بعد قرون. كانت مشغولة بالأشياء الصغيرة التي تشكل حياة الإنسان : البيت ، الأطفال ، الخوف ، المرض ، الطعام ، العلاقات ، انتظار الأخبار.

لكن الذاكرة لا تحفظ التفاصيل الصغيرة عادة. إنها تختصر الإنسان في قصة.

وهكذا يمكن أن تتحول المرأة إلى اسم ، والاسم إلى رمز ، والرمز إلى رواية ، ثم تصبح الرواية في النهاية أكثر شهرة من الحقيقة التي لا نستطيع الوصول إليها.

لهذا ينبغي أن نقرأ قصة هولوفيرا لا باعتبارها حكاية رومانسية مكتملة ، ولا باعتبارها حادثة اختطاف محسومة ، بل باعتبارها نافذة على عالم حدودي كان شديد التعقيد ، تتشابك فيه الحرب والسياسة والزواج والهجرة والهوية.

*

ربما لا نستطيع أن نعرف على وجه اليقين ماذا حدث في اللحظة التي انتقلت فيها هولوفيرا إلى عالم أورخان. وربما لن نستطيع أبدًا أن نفصل بصورة نهائية بين الخطف والزواج ، أو بين القرار السياسي والرغبة الشخصية.

لكن عدم اليقين ليس دائمًا نقصًا في التاريخ. أحيانًا يكون هو الحقيقة الوحيدة التي نستطيع الدفاع عنها.

إن قصة هولوفيرا تذكرنا بأن التاريخ لا يتكون من انتصارات السلاطين وحدها ، ولا من أسماء المدن التي تبدلت أعلامها ، ولا من المعارك التي حفظتها السجلات. التاريخ أيضًا هو تلك المرأة التي تنظر للمرة الأخيرة إلى مكان تعرفه ، ثم تمضي إلى مكان لا تعرفه.

وهو الرجل الذي يكتشف أن بناء دولة لا يعني أنه يستطيع أن يفهم قلب إنسان.

بين الخطف والزواج ، إذن ، توجد مساحة رمادية لا ينبغي أن نغلقها بحكم سريع. فيها خوف المرأة ، وطموح الأمير ، وحسابات العائلات ، وتحولات الحدود ، وذاكرة وطن قديم، واحتمال وطن جديد.

وربما كان السؤال الأعمق ليس : «هل كانت هولوفيرا مخطوفة أم زوجة ؟«

بل : **متى يتحول الإنسان، بعد أن يُقتلع من مكانه ، من غريب إلى جزء من المكان الجديد ؟**

لا نملك جوابًا تاريخيًا قاطعًا.

لكننا نعرف شيئًا واحدًا : أن الإنسان يستطيع أن يعيش بين عالمين سنوات طويلة ، وأن يحمل في داخله وطنين متعارضين ، وأن يكتشف متأخرًا أن القلب لا يعرف الحدود التي يرسمها المؤرخون على الخرائط.

وهكذا تبقى هولوفيرا واقفة ، في الذاكرة ، عند ذلك الحد الفاصل بين عالمين ؛ لا كامرأة خطفتها الحرب وحدها ، ولا كعروس أتمّ الزواج وحده مصيرها ، وإنما كإنسانة وجدت نفسها داخل حركة تاريخ أكبر منها.

أما أورخان ، الذي كان يظن أن الحدود تُرسم بالسيف ، فقد وجد في حياته الخاصة أن بعض الحدود لا تُرسم إلا بالزمن.

فالبلاد يمكن أن تتغير في يوم. والرايات يمكن أن تتبدل في ساعة.

لكن قلب الإنسان يحتاج سنوات كي يتعلم اسم المكان الذي أصبح يسميه وطنًا.

أورخان: الرجل خلف صورة الأمير

تغلب صورة المحارب على صورة أورخان في الحكايات التي بقيت تتناقلها الذاكرة العثمانية عن البدايات. يظهر الأمير في المخيلة رجلًا يمتطي جواده ، يحيط به الفرسان ، ويتقدم نحو الأسوار التي لم تكن تعرف بعد اسم الدولة التي ستولد خلفها. غير أن التاريخ ، حين نقترب منه قليلًا ، لا يعطينا رجلًا يحمل السيف فحسب ، بل يعطينا رجلًا كان عليه أن يتعلم كيف يحول الانتصار العسكري إلى نظام ، وكيف يجعل من الغنيمة أرضًا ، ومن الأرض مدينة ، ومن المدينة مركزًا لدولة تستطيع أن تعيش بعد موت أصحابها.

تولى أورخان بن عثمان قيادة الإمارة الناشئة في مرحلة لم يعد فيها يكفي أن ينتصر الأمير في معركة. كان أبوه عثمان قد وضع الأساس الأول لكيان صغير على أطراف العالم البيزنطي ، في منطقة تختلط فيها القرى بالحصون ، والطرق التجارية بالمسالك العسكرية ، والقبائل بالمجتمعات المستقرة. أما أورخان، فقد ورث هذا الكيان في اللحظة التي كان فيها عليه أن يختار : هل يبقى إمارة حدودية تعتمد على غارات الفرسان ، أم يتحول إلى دولة لها مدن وإدارة واقتصاد ومؤسسات ؟

كان الجواب يتشكل ببطء.

لم يكن الطريق مستقيمًا ، ولم تكن القرارات التي صنعت المستقبل تبدو ، لحظة اتخاذها ، كأنها قرارات تاريخية عظيمة. أحيانًا يبدأ التحول من حصن صغير ، أو سوق يعاد تنظيمه ، أو مسجد يبنى في مدينة جديدة ، أو طريق يصبح أكثر أمنًا. وربما كان التاريخ الحقيقي للدول أقل صخبًا من التاريخ الذي ترويه السيوف.

كان فتح بورصة ، في القرن الرابع عشر ، من أهم التحولات في عهد أورخان. لم تكن بورصة مجرد مدينة أخرى تضاف إلى قائمة الفتوحات. كانت مدينة غنية ، ذات موقع اقتصادي مهم ، ومتصلة بعالم التجارة والحرير، وتملك تقاليد حضرية وإدارية أقدم بكثير من الإمارة

العثمانية نفسها. دخولها في المجال العثماني غيّر طبيعة الدولة. فالأمير الذي كان يقود رجالًا في الحدود صار مسؤولًا عن سكان مدينة ، وعن أسواق ، وحرفيين ، وتجار ، وضرائب ، وطرق ، وأوقاف ، وعلاقات مع طبقات اجتماعية لم تكن تعرف حياة المعسكر.

هنا تبدأ صورة أورخان الأخرى.

صورة الرجل الذي كان عليه أن يجلس طويلًا ، وأن يستمع ، وأن يقرأ ما يكتبه الكتبة ، وأن يعرف أن السيف يستطيع فتح الباب ، لكنه لا يستطيع إدارة البيت بعد ذلك.

يمكن أن نتخيله ، في ليلة هادئة من ليالي بورصة ، جالسًا قرب نافذة تطل على المدينة. لا يسمع صهيل الخيل هذه المرة ، بل أصواتًا أخرى : بائعًا يغلق متجره ، وطفلًا يبكي في بيت بعيد ، ورجلًا ينادي على دابته ، ومطرًا خفيفًا يضرب حجارة الطريق.

كانت المدينة قد تغيرت ، لكنه كان يشعر أن التغيير الحقيقي لم يبدأ بعد.

تدخل عليه هولوفيرا.

وهنا ينبغي أن نتذكر أن حضور هولوفيرا ، أو نيلوفر خاتون في الروايات اللاحقة ، ينتمي إلى مساحة اختلطت فيها الذاكرة التاريخية بالحكاية الشعبية. لذلك فإن الحوار الآتي ليس وثيقة تاريخية ، وإنما مشهد أدبي متخيل يحاول أن يضع الإنسان داخل اللحظة التي صنعتها الوقائع.

تقول له : أنت تنظر إلى الخرائط كثيرًا.

يرفع أورخان عينيه عن الورقة.

لأن الرجل الذي لا يعرف أين يقف ، لا يعرف إلى أين يذهب.

تبتسم قليلًا.

وهل تعرف إلى أين تريد أن تذهب ؟

يصمت.

خارج النافذة كان المطر قد بدأ يثقل.

لا أعرف حدود الطريق ، يقول أخيرًا ، لكنني أعرف أن ما بدأه أبي لن يتوقف عند أول سور.

تقترب من الطاولة.

وأين مكاني في هذا الطريق ؟

ينظر إليها طويلًا. لا يجيب بسرعة ، وكأنه يخشى أن يفسد جواب سريع شيئًا لم يفهمه بعد.

ثم يقول :ربما أنتِ السؤال الذي لم أضع له جوابًا.

لا نعرف إن كان هذا الحوار قد وقع. والأرجح أنه لم يقع بهذه الصورة. لكنه ، بوصفه خيالًا أدبيًا ، يلمس مسألة تاريخية حقيقية : لم تكن الدولة العثمانية المبكرة تبني نفسها بالسيف وحده. كانت تعيش في منطقة حدودية تتداخل فيها اللغات والأديان والعادات والمصالح ، وكان نجاحها يعتمد ، إلى جانب القوة العسكرية ، على قدرتها على استيعاب هذا العالم بدلًا من تحطيمه كله.

كان أورخان ابن حدود ، لكنه لم يكن أسير الحدود. وهذه ربما إحدى أهم مفارقات عهده.

فالحدود في تلك المنطقة لم تكن خطًا مرسومًا على خريطة ، كما نتخيلها اليوم. كانت منطقة واسعة من التبادل والخوف والطموح. قد يكون الرجل مقاتلًا في صباح يوم ، وتاجرًا في المساء ، وحليفًا لأمير آخر في العام التالي. وقد تعيش قرية مسيحية تحت سلطة جديدة دون أن تختفي فجأة حياتها القديمة. كان الانتقال السياسي أكثر تعقيدًا من الروايات التي تقسم العالم إلى منتصر ومهزوم.

لهذا كان أورخان بحاجة إلى لغة أخرى غير لغة الحرب. احتاج إلى الإدارة ، وإلى رجال يعرفون الحساب ، وإلى القضاة ، وإلى العلماء ، وإلى تنظيم الموارد ، وإلى تثبيت الطرق والأسواق. وارتبط عهده بظهور مؤسسات مهمة في الدولة العثمانية المبكرة ، كما شهد تطورًا في التنظيم العسكري والإداري ، حتى بدأت الإمارة تكتسب ملامح دولة أكثر استقرارًا.

كان هذا النوع من السلطة أقل إثارة في أعين الشعراء ، لكنه كان أكثر تأثيرًا في حياة الناس.

فالمعركة تنتهي في يوم. أما النظام فيبقى سنوات.

ولعل هذا هو الجزء الذي لا يظهر في صورة الأمير المعلقة على الجدار.

الصورة تحب الرجل وهو يرفع السيف.

لكن الدولة تحتاجه وهو يضع السيف جانبًا ويجلس إلى طاولة طويلة.

في إحدى الروايات الأدبية الممكنة ، كان أورخان يتحدث مع أحد رجاله عن المدينة الجديدة.

قال الرجل : لقد انتصرنا.

فأجابه أورخان : لا تقل انتصرنا قبل أن تعرف ماذا سنفعل بالذين عاشوا هنا.

رفع الرجل رأسه باستغراب.

إنهم أهل المدينة التي أخذناها.

بل المدينة التي أصبحت مسؤوليتنا.

ساد الصمت.

ثم أضاف أورخان : من السهل أن تكون سيد مدينة بالخوف. الصعب أن تجعل أهلها يصدقون أن الغد لن يكون أسوأ من الأمس.

هذه الكلمات متخيلة، لكنها تلخص سؤالًا سياسيًا حقيقيًا واجهته الدول الناشئة : كيف تنتقل من قوة تفرض نفسها إلى سلطة تستطيع أن تستمر؟

ولم يكن ذلك الانتقال خاليًا من التناقضات. فالدولة التي تتوسع تحتاج إلى الحرب ، لكنها تحتاج أيضًا إلى الاستقرار. تحتاج إلى الفرسان ، لكنها تحتاج إلى الفلاحين والتجار والحرفيين. تحتاج إلى الطموح ، لكنها تحتاج إلى الصبر. ولهذا فإن شخصية أورخان ، إذا نظرنا إليها بعيدًا عن الأسطورة ، تبدو أقرب إلى شخصية رجل يعيش بين زمنين.

زمن أبيه ، حيث كانت البطولة الفردية تكفي أحيانًا لصناعة المكانة. وزمن أبنائه وأحفاده ، حيث ستصبح الدولة أكثر تعقيدًا ، وسيصبح الجيش والإدارة والاقتصاد عناصر مترابطة في مشروع سياسي طويل.

كان أورخان يقف في منتصف الجسر. خلفه عالم القبيلة والحدود والفرسان. وأمامه مدينة ، ودولة ، ومستقبل لم يكن يعرف تفاصيله.

وربما كان أكثر ما يميزه أنه لم يكن مضطرًا إلى معرفة المستقبل كي يعمل من أجله.

في السنوات التالية ، ستتوسع الدولة العثمانية في شمال غربي الأناضول ، وسيزداد اتصالها بالعالم البيزنطي ، ثم تعبر إلى أوروبا في عهد خلفائه ، وتتحول الإمارة الصغيرة إلى قوة ستغير تاريخ المنطقة قرونًا طويلة .لكن كل ذلك لم يكن مكتوبًا على قطعة من الورق أمام أورخان.

التاريخ لا يأتي إلى أصحابه كاملًا. إنه يصل إليهم على شكل احتمالات.

وكان أورخان يعيش داخل أحد تلك الاحتمالات.

لهذا لا ينبغي أن نتذكره فقط بوصفه ابن عثمان أو والد مراد الأول. فهذه الطريقة تجعل الرجل مجرد حلقة في سلسلة من الرجال الأقوى شهرة. أما إذا نظرنا إليه بوصفه شخصية مستقلة ، فسوف نرى أميرًا عاش اللحظة التي بدأت فيها الإمارة تتحول إلى دولة ، وشارك في نقل مركز الثقل من المغامرة العسكرية إلى البناء السياسي.

كان يعرف أن الأسوار يمكن أن تسقط. لكنه عرف ، أو بدأ يعرف ، أن ما هو أصعب من إسقاط السور هو بناء الحياة خلفه.

وفي نهاية الليل ، حين كانت بورصة تهدأ تحت المطر ، ربما كان أورخان يعود إلى الخرائط.

لم يكن يبحث عن مدينة أخرى فقط. كان يبحث عن شكل لم يوجد بعد. شكل دولة تستطيع أن تبقى حين يغيب الأمير.

وكان ذلك ، في الحقيقة ، أعظم اختبار واجهه.

فالرجل يموت. والسيف يصدأ. والحصان الذي حمل صاحبه إلى المعركة ينتهي يومًا في إسطبل صامت. أما المدينة، فإنها تواصل حياتها.

وهكذا بقي أورخان في التاريخ لا لأنه كان محاربًا فحسب ، بل لأنه عاش في اللحظة التي بدأت فيها القوة العثمانية تتعلم كيف تتحول إلى دولة. خلف صورة الأمير المقاتل ، كان هناك رجل آخر: رجل ينظر إلى الخرائط ، ويحسب المسافات ، ويستمع إلى اختلاف الناس ، ويعرف أن المستقبل لا يُفتح بالسيف وحده.

ربما كان هذا هو إرثه الأعمق. ليس ما أخذه من المدن فقط، بل ما تعلمه من المدن.

وليس عدد الأسوار التي سقطت أمامه ، بل الطريقة التي بدأت بها الدولة ، في عهده ، تتعلم كيف تعيش بعد سقوط الأسوار.

وهنا ، بعيدًا عن لمعان السيوف وصخب الروايات ، تظهر صورة أورخان الأكثر إنسانية : رجل يقف في آخر الليل أمام نافذة ، ينظر إلى مدينة لا تزال غريبة عنه ، ويسأل نفسه السؤال الذي لا يجرؤ الأمير على قوله أمام رجاله : **هل نحن الذين صنعنا هذه الدولة ، أم أن الدولة التي بدأت تنمو من حولنا هي التي ستصنعنا ؟**

لم يكن يعرف الجواب. ولعل التاريخ كله كان جوابًا مؤجلًا.

من هولوفيرا إلى نيلوفر خاتون
رحلة امرأة بين ضفتي التاريخ والهوية

في تاريخ الإمبراطوريات ، تبدو التحولات الكبرى أحيانًا كأنها وقعت بضربة واحدة : مدينة تسقط ، قلعة تُفتح ، أسرة تتبدل ، وامرأة تعبر من عالم إلى عالم. لكن حياة الإنسان لا تعرف هذه السرعة. فالحدث قد يقع في يوم واحد ، أما أثره فيحتاج إلى سنوات طويلة كي يستقر في الروح.

ترتبط هولوفيرا ، في التقليد العثماني المتأخر ، باسم نيلوفر خاتون ، وهو الاسم الذي اكتسب حضورًا واسعًا في الذاكرة التاريخية. وتروي الروايات أنها اعتنقت الإسلام ، ثم اندمجت تدريجيًا في المجتمع العثماني ، حتى أصبحت واحدة من النساء اللواتي ارتبطت أسماؤهن بالبدايات المبكرة للدولة العثمانية.

غير أن قراءة هذه القصة بوصفها انتقالًا سحريًا من هوية إلى أخرى تضيّع أهم ما فيها. فالتحول الحقيقي لا يحدث حين يتغير الاسم ، ولا حين يُفتح باب بيت جديد ، ولا حتى حين تُبدَّل الملابس. التحول يحدث في الداخل ، في ذلك المكان الصامت الذي يحتفظ فيه الإنسان بصورته القديمة عن نفسه ، حتى بعد أن يراه الآخرون شخصًا جديدًا.

ولهذا فإن قصة هولوفيرا ، إذا قُرئت قراءة تاريخية أدبية ، لا تبدو قصة امرأة تركت قلعة بيزنطية ودخلت بيتًا عثمانيًا فحسب ؛ بل تبدو قصة هوية أُعيد تشكيلها ببطء ، بين الخوف والتأقلم ، وبين الذاكرة والنسيان ، وبين الماضي الذي لا يموت بسهولة والمستقبل الذي يطلب من الإنسان أن يولد مرة أخرى.

كانت هولوفيرا تنتمي ، بحسب الروايات التي تناقلت قصتها ، إلى عالم بيزنطي يختلف في لغته وعاداته ونظرته إلى السلطة والحياة.

كان ذلك العالم بالنسبة إليها هو العالم الطبيعي ؛ فيه وُلدت ، وفيه تعلمت أسماء الأشياء ، وفيه كانت للوجوه معانيها الأولى.

فالطفولة لا تسأل عن التاريخ. الطفل لا يعرف أن اللغة التي يتكلم بها ستصبح يومًا علامة على انتمائه ، ولا أن الطريق الذي يسلكه كل صباح قد ينتهي ذات يوم خلف حدود دولة أخرى. كان العالم بالنسبة إلى هولوفيرا ، كما هو بالنسبة إلى معظم البشر ، صغيرًا بما يكفي ليُحب ، وكبيرًا بما يكفي ليُصدَّق.

ثم جاءت السياسة.

في القرون التي تشكلت فيها الدولة العثمانية ، لم تكن الحدود خطوطًا ثابتة على الخرائط كما نتخيلها اليوم. كانت تتحرك مع القلاع والطرق والتحالفات والزيجات. وكانت النساء ، مثل الرجال ، يجدن أنفسهن أحيانًا داخل نتائج صراعات لم يخترنها.

ومن هنا يمكن أن تبدأ الحكاية الأدبية لهولوفيرا: ليس من لحظة انتصار عسكري ، بل من لحظة صمت.

امرأة تنظر إلى المكان الذي عرفته ، وتدرك أن الأشياء نفسها لم تعد تعني ما كانت تعنيه بالأمس.

قد يبقى الحجر في مكانه ، وتبقى الأشجار واقفة ، ويظل النهر يجري في مجراه القديم ، لكن الإنسان حين يتغير موقعه من العالم يرى المشهد نفسه بعين أخرى.

ربما كان ذلك أول درس في التحول: أن المكان لا يتغير وحده ، بل تتغير العلاقة به.

حين ارتبط اسم هولوفيرا باسم نيلوفر خاتون ، لم يكن الأمر مجرد استبدال كلمة بكلمة. فالاسم في المجتمعات التقليدية يحمل أكثر من دلالة؛ إنه علامة على الانتماء ، وعلى الذاكرة ، وعلى المكان الذي يريد المجتمع أن يضع الإنسان فيه.

لكن من السهل أن نتصور أن الاسم الجديد محا الاسم القديم. والأرجح أن النفس البشرية أكثر تعقيدًا من ذلك.

يمكن للإنسان أن يحمل اسمًا جديدًا ، بينما يظل داخله اسم قديم لا يسمعه أحد.

ولهذا يمكن تصور هولوفيرا ، في سنواتها الأولى داخل المجتمع العثماني ، وهي تتعلم أن تُجيب حين تُنادى باسم نيلوفر. ربما كان الاسم يبدو غريبًا في البداية ، ثم صار مألوفًا ، ثم صار جزءًا من حياتها ، حتى جاء يوم لم تعد تفكر فيه بوصفه اسمًا جديدًا.

وهكذا لا يحدث التحول في لحظة إعلان ، بل في التفاصيل الصغيرة.

امرأة تنطق كلمات جديدة. تتعلم طريقة أخرى في الجلوس. تتعرف إلى أسماء الأطعمة. تسمع حكايات لا تعرفها. تتعلم أن للصمت في هذا البيت معنى مختلفًا عن الصمت في بيتها القديم.

ثم تبدأ ، من دون أن تشعر ، في فهم الأشياء كما يفهمها أهل المكان.

كان الاندماج الاجتماعي ، في جوهره ، رحلة طويلة في اللغة. فاللغة ليست وسيلة للكلام فقط ؛ إنها طريقة لرؤية العالم. حين يتعلم الإنسان لغة جديدة، فإنه لا يتعلم الكلمات وحدها، بل يتعلم أيضًا كيف يطلب ، وكيف يرفض ، وكيف يحب ، وكيف يغضب ، وكيف يخفي خوفه.

ومن الممكن أن تكون السنوات الأولى لنيلوفر قد حملت شيئًا من هذا التوتر الصامت. كانت هناك كلمات من عالمها الأول لا تزال تسكن ذاكرتها ، وكلمات من عالمها الجديد أصبحت ضرورية لحياتها اليومية.

وفي المساء ، حين يهدأ البيت ، يمكن أن تعود إليها أشياء لا علاقة لها بالحاضر : رائحة بحر ، صوت امرأة قديمة ، نافذة في قلعة ، اسم شخص لم يعد موجودًا ، أو أغنية سمعتها في طفولتها ولم تفهم آنذاك أنها ستصبح يومًا صندوقًا لذاكرتها.

هنا يظهر الجانب النفسي في قصتها.

فالإنسان لا يترك ماضيه خلفه كما يترك ثوبًا قديمًا. الماضي يسافر معه ، أحيانًا في أكثر الأماكن خفاءً. وربما لم تكن نيلوفر تريد أن تنسى هولوفيرا. وربما لم تكن تستطيع ذلك أصلًا.

لقد تعلمت فقط أن تعيش معها.

يمكن تخيل حوار قصير بينها وبين امرأة عثمانية أكبر سنًا، في ليلة هادئة ، حين أصبح البيت مألوفًا إلى حد ما.

قالت المرأة : ما زلتِ تفكرين في المكان القديم ؟

أجابت نيلوفر بعد صمت : أحيانًا.

وهل تشتاقين إليه ؟

نظرت إلى النار قبل أن تقول : لا أعرف إن كنت أشتاق إلى المكان، أم إلى المرأة التي كنتها هناك.

سكتت المرأة قليلًا ، ثم قالت : وما الفرق؟

ابتسمت نيلوفر ابتسامة خفيفة.

المكان يمكن أن يعود إليه الإنسان. أما نفسه القديمة فلا تعود.

لم تكن هذه الجملة ، بالطبع ، حدثًا مسجلًا في مصدر تاريخي. إنها صورة أدبية تلخص معضلة إنسانية يمكن أن تكشفها قصتها. فالمؤرخ يبحث عن الوقائع ، أما الأدب فيحاول أن يسأل عما كان يمكن أن يشعر به الإنسان وهو يعيش تلك الوقائع.

ومن هنا يجب أن نميز بين التاريخ والتخييل : التاريخ يمنحنا الإطار ، بينما يمنحنا الخيال وسيلة للاقتراب من الصمت الذي تركته المصادر وراءها.

X

تذكر الروايات التقليدية أن هولوفيرا اعتنقت الإسلام ، ثم أصبحت نيلوفر خاتون. ولا ينبغي النظر إلى هذا التحول بوصفه حركة بسيطة من نقطة إلى نقطة ، لأن الاعتناق الديني ، مثل الاندماج الاجتماعي ، يتصل بالزمن والتجربة والبيئة والعلاقات الإنسانية.

في العالم العثماني الناشئ ، كان الدين جزءًا أساسيًا من الحياة اليومية. لم يكن مجرد اعتقاد منفصل عن المجتمع ، بل كان حاضرًا في الأسماء والعادات والاحتفالات واللغة والعلاقات.

ولذلك فإن دخول نيلوفر في هذا العالم يعني أنها كانت تتعلم ، في الوقت نفسه ، منظومة جديدة من المعاني.

قد تكون البداية مليئة بالأسئلة. ثم تأتي الألفة. ثم تتحول الألفة إلى عادة. ثم تصبح العادة جزءًا من الهوية.

وهذه المراحل البطيئة هي التي تجعل التحول الإنساني أكثر صدقًا من الروايات التي تصوره معجزة فورية.

مع مرور الوقت ، لم تعد نيلوفر مجرد امرأة ذات ماضٍ مختلف. أخذ اسمها يندمج في تاريخ الأسرة والمجتمع والدولة. وفي الذاكرة العثمانية اللاحقة ارتبطت نيلوفر خاتون بمكانة بارزة بين النساء اللواتي تركن أثرًا في بدايات المؤسسة العثمانية.

وهنا يتغير السؤال. لم يعد السؤال : من أين جاءت ؟ بل : ماذا أصبحت ؟

وهذا التحول مهم لأن التاريخ كثيرًا ما يضع النساء في الهامش ، فيذكر أسماء الرجال ، والفتوحات ، والمعاهدات ، ثم يمر سريعًا على النساء اللواتي عشن داخل هذه الأحداث.

لكن المرأة ليست هامشًا في التاريخ الاجتماعي. إنها جزء من الطريقة التي تستمر بها الدولة في الحياة اليومية.

فالأسرة ، والبيت ، والتربية ، والعلاقات ، والوقف ، والطقوس الاجتماعية ، كلها مجالات تتقاطع فيها حياة النساء مع نشوء المؤسسات.

ومن هذه الزاوية ، تصبح نيلوفر شخصية تتجاوز الحكاية الرومانسية عن أميرة بيزنطية تحولت إلى امرأة عثمانية. إنها صورة لمرحلة تاريخية كاملة ، كانت فيها المجتمعات تتداخل ، والهويات تتغير، والحدود الثقافية أقل صلابة مما تبدو عليه في كتب التاريخ.

X

لم تمت هولوفيرا في اللحظة التي ظهر فيها اسم نيلوفر.

هذه ربما هي الفكرة الأهم في قصتها. فالهويات لا تموت عادة ؛ إنها تعيد ترتيب نفسها.

تظل بعض الصور في الذاكرة ، وتختفي أخرى. تبقى بعض الكلمات ، بينما تُنسى كلمات. يتغير الطعام ، ثم يصبح الطعام الجديد مألوفًا. تتغير الملابس ، ثم تتوقف المرأة عن التفكير في اختلافها. يتغير البيت ، ثم يصبح البيت الجديد هو المكان الذي تخاف على أشيائه من الضياع.

وفي لحظة ما ، ربما أدركت نيلوفر أن السؤال القديم لم يعد يؤلمها كما كان. لم تعد مضطرة إلى اختيار أحد العالمين بالكامل. فهي ابنة ماضٍ بيزنطي ، وامرأة أصبحت جزءًا من مجتمع عثماني. وبين الاثنين نشأت هوية ثالثة ، لا تنتمي بصورة كاملة إلى ما كان ، ولا تنفصل عنه بصورة كاملة. إنها هوية صُنعت من الذاكرة والتجربة والزمن.

X

تمنحنا قصة هولوفيرا ونيلوفر خاتون فرصة لقراءة التاريخ من جهة أخرى ؛ من جهة الإنسان لا من جهة السيف ، ومن جهة الذاكرة لا من جهة المعركة.

قد تسقط القلاع في يوم واحد، لكن الإنسان يحتاج إلى سنوات كي يعرف أنه غادرها. وقد يتغير الاسم في لحظة ، لكن القلب يحتاج إلى زمن طويل حتى يتعلم أن يسمع الاسم الجديد دون أن يلتفت إلى القديم.

لهذا لا ينبغي أن تُقرأ حكاية نيلوفر خاتون بوصفها قصة تحول بسيط من بيزنطة إلى الدولة العثمانية ، أو من اسم إلى اسم ، أو من دين إلى دين. إنها ، في بعدها الأعمق ، قصة إعادة بناء للذات داخل عالم متغير.

وإذا كان التاريخ الرسمي يسأل عن الأسر والسلطة والفتوح ، فإن التاريخ الإنساني يسأل سؤالًا آخر: ماذا يحدث للإنسان حين يصبح ماضيه بعيدًا ، بينما يطالبه الحاضر بأن يكون شخصًا جديدًا ؟

ربما كانت الإجابة في حياة نيلوفر نفسها. لم تعد هولوفيرا كما كانت ، لكنها لم تصبح شخصًا بلا ماضٍ. لقد حملت الماضي معها، ثم أعادت تشكيله، كما يعيد النهر تشكيل الحجارة التي تقع في مجراه.

وفي النهاية ، لم يكن أهم ما حدث لها أنها غادرت مكانًا ودخلت مكانًا آخر، بل أنها تعلمت أن تعيش بين عالمين، وأن تصنع من هذا التمزق هوية جديدة.

وهكذا يصبح اسم نيلوفر خاتون أكثر من اسم في سجل عثماني قديم. يصبح علامة على ذلك التحول الهادئ الذي لا تسجله المعارك ، ولا تسمعه الأبواق ، لكنه يصنع الإنسان من الداخل.

فالقلعة قد تُفتح في صباح واحد. أما القلب ، فيحتاج إلى عمر كامل كي يجد بابه.

من أميرة الحدود إلى امرأة عثمانية
نيلوفر بين الذاكرة والانتماء

تظهر نيلوفر في الحكايات العثمانية المتأخرة كأنها امرأة عبرت من ضفة إلى أخرى بلا جرح ، وكأن الطريق بين العالم البيزنطي والعالم العثماني لم يكن أكثر من باب يُفتح ثم يُغلق. غير أن التاريخ ، حين نقترب منه بعين الإنسان لا بعين السجل ، يصبح أكثر تعقيدًا. فالإنسان لا يخلع ماضيه كما يخلع ثوبًا ، ولا تمحو الغربة ذاكرة الطفولة. وقد يكون أهم ما في حكاية نيلوفر ليس انتقالها من بيت إلى بيت ، ولا تغير اسمها ومكانتها ، بل ذلك الصراع الصامت الذي يمكن أن ينشأ في داخل امرأة وجدت نفسها بين عالمين.

وتحتاج شخصية نيلوفر ، قبل كل شيء ، إلى قدر من الحذر التاريخي. فالروايات الشعبية العثمانية نسبت إليها أصلًا بيزنطيًا ، وربطتها بحاكم محلي في نيقية أو يار حصار ، غير أن تفاصيل نسبها وقصة أسرها وزواجها ليست ثابتة في جميع المصادر. لذلك فإن الصورة التي نقدمها هنا تجمع بين ما تسمح به الأخبار التاريخية وبين الخيال الأدبي الذي يعيد بناء التجربة النفسية والاجتماعية للشخصية. ليست الغاية اختراع حقيقة بديلة ، بل تخيل المساحات التي سكتت عنها الوثائق.

في طفولتها المتخيلة ، يمكن أن نرى نيلوفر واقفة عند نافذة عالية ، تنظر إلى حدائق القلعة. كانت تعرف أسماء الأشجار ، وتعرف الطريق الذي تسلكه النساء إلى المطبخ ، وتعرف كيف يتغير لون السماء فوق الأسوار قبل المطر. كانت أمها تناديها من الداخل ، وكانت أصوات الخادمات تمتزج برائحة الخبز والأعشاب. لم تكن الطفلة تعرف أن هذه

التفاصيل الصغيرة ستصبح يومًا أثمن من الذهب ؛ لأن الإنسان لا يعرف قيمة المكان إلا حين يفقده.

ثم جاء التحول.

لم يكن الانتقال في حياتها مجرد انتقال جغرافي. لقد كان سقوطًا مفاجئًا في عالم جديد ، بلغة جديدة ، وعادات جديدة ، ووجوه لا تعرف فيها أحدًا. في مثل هذه اللحظة ، لا تسأل المرأة عن المستقبل أولًا ؛ تسأل عن نفسها. من أنا الآن ؟ ما اسمي ؟ ما الذي بقي لي من الأمس ؟ وهل يستطيع القلب أن يسكن بيتًا لم يختره ؟

كان يمكن أن تقول نيلوفر، في حوار متخيل مع امرأة من نساء القبيلة : أتشعرين أنك غريبة هنا ؟

سكتت نيلوفر قليلًا، ثم نظرت إلى النار.

في البداية كنت أشعر أن كل شيء غريب.

والآن ؟

رفعت عينيها ، وفيهما شيء من التعب وشيء من الطمأنينة.

الآن أصبحت بعض الأشياء غريبة إذا لم تكن هنا.

هذه الجملة ، وإن كانت أدبية متخيلة ، تلخص جوهر التحول. فالانتماء الحقيقي لا يبدأ حين ننسى المكان الأول ، وإنما حين يصبح المكان الجديد جزءًا من الذاكرة. والإنسان لا يحتاج إلى أن يكره ماضيه كي يحب حاضره.

كان من السهل ، في الرواية الشعبية ، أن نجعل نيلوفر تتكيف بسرعة ، وأن نضع أمامها ثوبًا جديدًا وبيتًا جديدًا وزوجًا جديدًا ، ثم نقول إن الحكاية انتهت. لكن النفس البشرية لا تعمل بهذه البساطة. التغير الاجتماعي يحدث ببطء ، عبر تفاصيل صغيرة : امرأة تعلمها كيف تصنع الطعام ، طفلة تناديها باسم لم تعتده ، شيخ يذكرها أمام الناس بوصفها فردًا من الجماعة ، وليلة تستيقظ فيها فلا تبحث بعينيها عن نافذة بيتها القديم.

ربما كانت أولى علامات التغير في علاقتها باللغة. الكلمات ليست أدوات محايدة ؛ إنها بيوت صغيرة تسكنها الذكريات. حين تتعلم المرأة لغة جديدة ، فإنها لا تتعلم أسماء الأشياء فقط ، بل تتعلم طريقة جديدة في النظر إليها. وقد كانت نيلوفر ، في تصورنا الأدبي ، تردد الكلمات

الجديدة في سرها ، ثم تقارنها بألفاظ طفولتها. كانت بعض الكلمات تضحكها ، وبعضها يوجعها ، وبعضها كان يفتح في داخلها بابًا لا تعرف إلى أين يقود.

وفي لياليها الأولى ، حين يهدأ المكان ، كان يمكن لذاكرتها أن تستعيد المشهد القديم كاملًا. حديقة ، نافذة ، وجه أم ، أغنية بعيدة ، وصوت أقدام في ممر حجري. ثم يأتي صوت المؤذن من المسجد القريب ، هادئًا في الليل ، فيملأ الفضاء الذي كان يحتله صوت آخر. لم يكن الصوت الجديد يمحو القديم. كان يضاف إليه.

وهنا تتشكل المسألة الدينية والاجتماعية في صورتها الإنسانية. إن الانتقال بين مجتمعين لا يعني مجرد تبديل الانتماء الرسمي ، بل إعادة ترتيب العلاقات كلها. فالمرأة الجديدة تحتاج إلى أن تجد مكانها في شبكة من القرابة ، والسلطة ، والعمل ، والطقوس. وما يبدو من الخارج اندماجًا سريعًا قد يكون في الداخل سنوات من المراقبة والتعلم والصمت.

كانت نساء الجماعة يعرفن هذا أكثر مما يعرفه الرجال. فالنساء يلتقين في المطبخ ، عند الماء ، في الأعراس والمآتم ، وفي الأعمال اليومية التي لا تسجلها كتب المؤرخين. هناك ، بعيدًا عن مجالس السلطة ، تتعلم الغريبة قواعد المكان. كيف تتحدث ؟ متى تصمت ؟ من تناديه باسمه ؟ كيف تستقبل الضيفة ؟ ما الذي يقال أمام الرجال وما الذي يقال بين النساء ؟

وربما كانت إحدى النساء ، وهي أكبر سنًا ، قد اقتربت من نيلوفر ذات مساء وقالت : لا تحاولي أن تصبحي مثلنا بسرعة.

نظرت إليها نيلوفر باستغراب.

ولماذا ؟

لأن الشجرة التي تنقلينها من أرض إلى أرض تحتاج إلى وقت كي تعرف أين تضرب جذورها.

ابتسمت نيلوفر.

وهل تعتقدين أنني سأصبح شجرة من هذه الأرض ؟

أجابتها المرأة : لا. ستصبحين شجرة تعرف الأرضين.

كان ذلك الحوار ، في معناه الرمزي ، يفسر شخصية نيلوفر أكثر من عشرات الروايات. فهي ليست امرأة تمحو أصلها ، ولا امرأة تعيش

أسيرة له. إنها شخصية هجينة بالمعنى الإنساني الجميل ؛ تحمل ذاكرة قديمة داخل حياة جديدة ، وتعيد بناء نفسها من الاثنين.

ومع مرور السنوات ، لا بد أن يتغير معنى البيت. في البداية كان البيت القديم هو المكان الوحيد الذي يستحق اسم البيت. ثم صار البيت الجديد مكانًا للإقامة. وبعد ذلك، شيئًا فشيئًا ، صار مكانًا للذكريات. هنا وُلد طفل. هنا مرض زوجها. هنا جاء الربيع الأول الذي شعرت فيه بالأمان. هنا ضحكت. هنا بكت. هنا مات شخص تحبه. وهكذا تتحول الجغرافيا إلى سيرة.

ولعل أهم ما يميز هذا التحول أن نيلوفر لم تعد تعرف الماضي كما عرفته وهي طفلة . فالذاكرة نفسها تتغير. نحن لا نتذكر الأشياء كما وقعت ، بل كما بقيت فينا. وربما كانت حديقة أبيها في الحقيقة أصغر مما تتذكر ، وربما كان صوت أمها أقل دفئًا ، وربما كانت الأغنية التي تشتاق إليها عادية جدًا. لكن الحنين يعيد ترتيب الأشياء ، فيجعل الصغير عظيمًا ، والعابر خالدًا.

ومن الناحية الاجتماعية ، فإن انتقال نيلوفر إلى البيئة العثمانية يفتح سؤالًا أوسع عن النساء في المناطق الحدودية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر . كانت الحدود فضاءً للحرب ، لكنها كانت أيضًا فضاءً للزواج والتحالف والتبادل والهجرة. لم تكن المجتمعات منفصلة بجدران صلبة ؛ كانت تتلامس باستمرار. لذلك فإن قصة امرأة واحدة يمكن أن تكشف عن عالم كامل تتحرك فيه اللغات والعادات والناس والسلطة.

ومن الممكن أن تكون نيلوفر قد أدت ، في الذاكرة العثمانية ، وظيفة رمزية تتجاوز سيرتها الفردية. فوجود امرأة ذات أصل بيزنطي داخل الأسرة الحاكمة ، كما تروي التقاليد ، يجعل الزواج صورة مصغرة لعالم يتغير. الدولة الصاعدة لم تكن تبني قوتها بالسيف وحده ؛ كانت تتشكل أيضًا من خلال المصاهرة ، واستيعاب الجماعات ، وإعادة تنظيم الولاءات. ولهذا فإن المرأة في مثل هذه الحكايات ليست هامشًا على التاريخ ، بل واحدة من المساحات التي يتحرك التاريخ داخلها.

ومع ذلك ، ينبغي ألا نجعل نيلوفر رمزًا مجردًا. خلف الاسم كانت امرأة لها خوفها ، وغضبها ، وحنينها ، ورغبتها في أن تكون محبوبة لا مجرد مقبولة. ربما كانت تسأل نفسها أحيانًا : هل أحبوني لأنني أصبحت منهم ، أم لأنهم رأوا فيّ شخصًا يمكن أن يحب ؟ هذا

السؤال لا يتعلق بالتاريخ وحده ، بل بكل إنسان يدخل جماعة جديدة ويحاول أن يجد فيها مكانًا لا يضطر فيه إلى تمثيل نفسه.

وفي إحدى الليالي ، يمكن أن نتخيلها جالسة قرب طفلها ، تسمع نومه الهادئ. تسأله في سرها عن أي عالم سيحمل حين يكبر. هل سيعرف شيئًا عن الأرض التي جاءت منها أمه ؟ هل سيشعر أن تلك الأرض تخصه أيضًا ؟ ثم تبتسم ؛ لأنها تدرك أن الطفل لا يحتاج إلى اختيار عالم واحد. لقد ورث أكثر من ذاكرة ، وأكثر من لغة ، وأكثر من قصة.

وهنا تبلغ نيلوفر لحظة الانتماء الحقيقية. ليست اللحظة التي نسيت فيها الحديقة الأولى ، ولا اللحظة التي اعتادت فيها الثوب الجديد ، ولا حين صار الناس ينادونها باسمها العثماني. إنها اللحظة التي استطاعت فيها أن تستعيد أمها في ذاكرتها من دون أن تشعر أن ذلك خيانة لحياتها الجديدة. أن تسمع المؤذن دون أن يختفي من داخلها صوت الأغنية القديمة. أن تنظر إلى طفلها فتدرك أن الماضي لم يمت ، بل عبر إلى المستقبل من خلالها.

لقد كانت رحلتها ، في هذا التصور الأدبي ، رحلة من الفقد إلى المعنى. لم تكن الغاية أن تصبح امرأة أخرى ، بل أن تصنع من الانقسام هوية. وبين جدران القلاع القديمة ، وبين طرق الأناضول ، وبين البيت والأسرة والقبيلة ، تشكلت امرأة تحمل عالمين في قلب واحد.

ولهذا فإن نيلوفر ، سواء نظرنا إليها بوصفها شخصية تاريخية تحيط بها الروايات ، أو بوصفها صورة أدبية للنساء اللواتي عبرن الحدود ، تظل أكثر إثارة من الحكاية السهلة التي تقول إن الماضي انتهى بمجرد أن بدأ الحاضر. فالتاريخ الحقيقي لا يعيش في أسماء السلاطين وحدها ، بل في الذاكرة الخفية للناس.

وتمنح هذه القراءة السردية للبحث مساحة لرؤية الإنسان داخل الحدث ، من غير أن تزعم تفاصيل لم تحفظها المصادر. فالصمت الوثائقي ليس فراغًا ، بل مجال للتأمل الأدبي المنضبط. والتخييل يظل معلنًا بوصفه تخييلًا. في هذا البناء المتخيل القصصي.

وفي النهاية ، لا تبدو نيلوفر امرأة تركت عالمًا ودخلت عالمًا آخر ، بل امرأة حملت عالمها الأول معها ، ثم أضافت إليه عالمًا ثانيًا. ومن هذه المسافة بين عالمين ولدت شخصيتها الجديدة. لم تعد أميرة بيزنطية

فحسب ، ولم تصبح امرأة عثمانية بالنسيان ، بل صارت جسرًا إنسانيًا بين زمنين.

كان يمكن أن تسألها المرأة العجوز، بعد سنوات : هل ما زلت تشتاقين إلى بيتك الأول ؟

فتجيب نيلوفر : أشتاق إليه، نعم.

وهل تريدين العودة ؟

تتأمل وجهها طويلًا، ثم تقول : أريد أن أراه مرة، لكنني لا أريد أن أفقد هذا البيت كي أجد ذاك.

عندها فقط تكتمل الحكاية. فالانتماء ليس قبرًا للماضي ، والهوية ليست بابًا يُغلق خلف الإنسان. إنها بيت واسع ، كلما اتسعت ذاكرته اتسعت جدرانه. وفي قلب هذا البيت ، تبقى نيلوفر امرأة عاشت بين عالمين ، ثم اكتشفت أن القلب ، بخلاف الخرائط ، لا يعرف الحدود.

الزواج بين الحب والسياسة
أورخان ونيلوفر بين ذاكرة التاريخ وخيال الحكاية

من السهل على الرواية الحديثة أن تقدم زواج أورخان غازي ونيلوفر خاتون بوصفه قصة حب مكتملة الأركان ؛ لقاءً أول ، وقلوبًا اضطربت ، ثم زواجًا انتصر فيه الحب على اختلاف اللغة والدين والسياسة. غير أن التاريخ، حين نقترب منه بحذر، لا يمنحنا هذه الصورة الواضحة. فالمصادر المبكرة عن بدايات الدولة العثمانية قليلة ومتأخرة نسبيًا ، وكثير من التفاصيل التي تحيط بشخصية نيلوفر قد تشكلت عبر روايات لاحقة وذاكرة شعبية امتزج فيها التاريخ بالأسطورة.

لذلك فإن الحديث عن علاقة أورخان بنيلوفر يحتاج إلى قدر من التمييز بين ما يمكن تثبيته تاريخيًا ، وما يمكن أن يكون قد أضافته الذاكرة الجماعية. ولا يعني هذا أن القصة تفقد جمالها ؛ بل لعل غموضها يمنحها بعدًا إنسانيًا أعمق. فحين تغيب التفاصيل ، يبدأ السؤال : ماذا كان يحدث خلف الأبواب التي لم يسجل المؤرخون ما جرى فيها ؟

في ذلك الزمن ، لم يكن الزواج شأنًا خاصًا بين رجل وامرأة فحسب. كان جزءًا من السياسة ، ومن نظام التحالفات ، ومن ترتيب العلاقات بين القوى المحلية. وكانت المرأة التي تدخل بيت الحاكم لا تدخل إليه بقلبها وحده ، وإنما تحمل معها تاريخ أسرتها وموقعها الاجتماعي والديني والسياسي.

ومن هنا يصبح زواج أورخان ونيلوفر أكثر من حكاية عاطفية. يصبح نافذة صغيرة نطل منها على عالم كانت فيه الدولة تتشكل، والحدود

تتغير ، والقرى تتحول إلى مدن ، والناس يجدون أنفسهم مضطرين إلى التعايش مع واقع جديد لا يشبه ما عرفوه من قبل.

تظهر نيلوفر في الذاكرة العثمانية اللاحقة بوصفها واحدة من الشخصيات النسائية المهمة في عهد أورخان. وتنسب إليها أعمال خيرية ومؤسسات دينية ، كما ارتبط اسمها بأوقاف ومنشآت بقي أثرها في التاريخ العثماني. غير أن تفاصيل حياتها الأولى ليست بالوضوح نفسه.

تذكر بعض الروايات أنها كانت ابنة أحد الحكام أو الزعماء البيزنطيين المحليين ، وتربطها روايات أخرى بأصول مختلفة. كما تحيط قصة انتقالها إلى بيت أورخان بتفاصيل لا نستطيع التعامل معها كلها باعتبارها حقائق ثابتة.

وهنا يمكن للخيال التاريخي أن يتحرك ، ولكن بشرط ألا يتنكر في هيئة الوثيقة.

يمكننا أن نتخيل الفتاة وهي تنظر إلى الطريق الذي يقودها بعيدًا عن عالمها الأول. لا نعرف ماذا شعرت في تلك اللحظة ، ولا ماذا قال لها أهلها ، ولا إن كانت تفهم معنى المستقبل الذي ينتظرها. لكننا نعرف شيئًا عن ذلك العصر : كانت الحروب تغير مصائر الناس بسرعة ، وكانت الحدود السياسية أكثر هشاشة مما تبدو عليه في كتب التاريخ.

ربما لم تكن نيلوفر تفكر في الحب. وربما لم يكن أورخان يفكر فيه أيضًا.

كان أمامه بيت يتسع ، وإمارة تنمو ، وحدود تحتاج إلى تثبيت ، وأعداء وحلفاء يتغيرون باستمرار. وكان عليه أن يتعامل مع الزواج بوصفه جزءًا من الحياة السياسية والاجتماعية التي تحيط بالحاكم.

لكن الإنسان لا يعيش داخل السياسة وحدها.

حتى في القصور ، حيث تتحدث الخرائط والرسائل والعهود ، يبقى هناك قلب يعرف الوحدة ، وعين تشتاق إلى وجه مألوف ، وصوت يحتاج إلى صوت آخر كي لا يتحول الصمت إلى جدار.

X

في المجتمعات الملكية والأميرية في العصور الوسطى ، كان الزواج وسيلة من وسائل بناء العلاقات. ولم تكن هذه الحقيقة خاصة

بالعثمانيين ؛ فقد عرفتها الأسر الحاكمة في بيزنطة وأوروبا والشرق الإسلامي على السواء.

ولهذا لا ينبغي أن ننظر إلى زواج أورخان ونيلوفر بمفهوم الزواج الحديث وحده.

كان الزواج يستطيع أن يفتح بابًا ، أو يغلق حربًا ، أو يقرب جماعة ، أو يمنح أسرة مكانة جديدة. وكانت المرأة أحيانًا تجد نفسها في مركز شبكة سياسية واسعة دون أن تكون هي التي رسمت خطوطها.

لكن السياسة، مهما بلغت قوتها، لا تستطيع تفسير الحياة كلها.

فبعد انتهاء المفاوضات ، وبعد أن تغلق أبواب المجلس ، ماذا يبقى ؟

يبقى شخصان.

وهنا تبدأ المساحة التي لا يستطيع المؤرخ أن يملأها بالوثائق.

يمكن تصور أورخان في سنواته الأولى رجلًا يعيش تحت ضغط أبيه واسم أسرته ، ثم يجد نفسه صاحب قرار ومسؤولية. وكان عليه أن يثبت أن الدولة الناشئة تستطيع أن تتجاوز مرحلة المؤسس إلى مرحلة الاستمرار. أما نيلوفر ، إن صح أنها جاءت من بيئة مختلفة ثقافيًا ودينيًا ، فقد وجدت نفسها أمام مجتمع جديد ، ولغة جديدة ، وتقاليد لم تكن جزءًا من طفولتها.

لم يكن الاختلاف بينهما مجرد اختلاف في الأسماء. كان اختلافًا في الذاكرة.

هو يحمل ذاكرة القبائل والحدود والفتوحات. وهي تحمل، في هذه الصورة المتخيلة، ذاكرة بيت آخر، ومدينة أخرى، وأصواتًا كانت تتحدث لغة مختلفة.

ومن الصعب أن يعيش شخصان تحت سقف واحد دون أن يصطدما بالماضي الذي يحمله كل منهما.

هنا يمكن أن تبدأ قصة الحب ، إن أردنا أن نمنح الرواية التاريخية مساحة للخيال دون أن نزعم أنها وثيقة.

ليس بالضرورة أن يبدأ الحب بنظرة خاطفة. قد يبدأ من الاحترام. وقد يبدأ من القدرة على الإصغاء. وقد يبدأ من اكتشاف أن الشخص الذي جاء من العالم الآخر ليس عدوًا، وإنما إنسان يحمل خوفه وأحلامه.

ربما جلس أورخان ذات مساء في مكان هادئ، بعيدًا عن أصوات الرجال في مجلسه، وسألها عن المدينة التي جاءت منها.

قد تجيبه في البداية بحذر : ولماذا تريد أن تعرف ؟

فيبتسم: لأنني لا أريد أن أحبك وأنا أجهل نصف حياتك.

فتصمت لحظة.

ثم تبدأ الحكاية.

تخبره عن بيتها القديم ، عن صباحات كانت تبدو عادية قبل أن تصبح ذكرى ، عن امرأة كانت تنتظرها عند الباب ، وعن شارع لم تعد تعرف إن كان ما يزال كما تركته.

ويستمع. لا يحاول أن يصحح ذاكرتها. ولا يطلب منها أن تنسى.

X

وفي اليوم التالي قد يحدث شيء صغير : يعرف اسم المكان الذي حدثته عنه ، أو يسألها عن شخص ذكرته ، أو يطلب منها أن تعيد كلمة من لغتها الأولى.

أشياء صغيرة لا تسجلها كتب التاريخ ، لكنها قد تصنع علاقة كاملة. فالعلاقات الإنسانية لا تنمو دائمًا في اللحظات الكبرى. أحيانًا تنمو في كوب ماء يوضع قرب السرير ، أو في سؤال عن مرض ، أو في انتظار عودة متأخرة ، أو في يد تمتد بصمت عندما يعجز الكلام عن أداء مهمته.

يمكن أن نتخيل حوارًا آخر بينهما ، بعد سنوات من الزواج.

قالت نيلوفر : أحيانًا أشعر أنني فقدت مكانين معًا. المكان الذي جئت منه، والمكان الذي لم أصبح جزءًا منه تمامًا.

نظر إليها أورخان طويلًا.

وهل تريدين العودة ؟

إلى أين ؟

سكت.

قالت : الإنسان لا يعود إلى المكان نفسه. حتى لو وجد البيت ، لن يجد نفسه القديمة فيه.

كانت الجملة أثقل من أن تحتاج إلى جواب.

ثم قال : وأنا أيضًا تركت مكانًا لم أعد أستطيع العودة إليه.

نظرت إليه بدهشة.

لكنك لم تغادره.

قال : بل غادرني.

في تلك اللحظة لا يعود الحوار بين حاكم وامرأة من بيت آخر. يصبح بين شخصين يكتشفان أن السلطة لا تمنح الإنسان القدرة على استعادة ما فقده.

وهذه هي المنطقة التي تجعل الرواية التاريخية إنسانية.

فأورخان، مهما كان موقعه ، ليس مجرد اسم في سلسلة السلاطين. ونيلوفر ليست مجرد زوجة في شجرة نسب. كلاهما إنسان يواجه الزمن بطريقته.

كان وجود الأبناء عاملًا آخر يمكن أن يغير طبيعة العلاقة. فالزواج الذي يبدأ في ظل السياسة قد يتحول ، مع مرور السنوات، إلى أسرة لها ذاكرتها الخاصة.

عندما يولد طفل ، يتغير معنى البيت.

لم يعد الماضي ملكًا لأحد الزوجين وحده.

تصبح هناك حياة جديدة تحتاج إلى أن تعرف عالمين ، وربما لغتين ، وذاكرتين.

وقد يكون هذا أحد المعاني الأدبية العميقة التي يمكن أن نمنحها لعلاقة أورخان ونيلوفر : أن الطفل يصبح جسرًا بين عالمين كانا يبدوان متباعدين.

في البيت، قد تختفي الحدود التي ترسمها الجيوش.

الطفل لا يعرف لماذا كان أبوه ينظر إلى الخريطة طويلًا ، ولا لماذا تحتفظ أمه بأشياء صغيرة من حياتها الأولى. هو يعرف فقط أن هذا أبوه ، وتلك أمه.

وهكذا تتحول السياسة ، شيئًا فشيئًا ، إلى حياة يومية.

ومن الممكن أن يكون هذا التحول أكثر أهمية من أي تحالف سياسي. فالدولة التي كانت تتوسع خارج البيت كانت تتغير داخله أيضًا.

تزداد أهمية نيلوفر في الرواية التاريخية حين نخرج بها من صورة الزوجة التي تدور حول الحاكم ، وننظر إليها بوصفها شخصية لها أثر مستقل.

فالمصادر التاريخية اللاحقة تربط اسمها بأعمال خيرية ومنشآت وأوقاف. وهذه الأعمال تكشف جانبًا مهمًا من حضور النساء في المجتمع العثماني المبكر ؛ إذ لم يكن نفوذ المرأة محصورًا في القصر ، بل كان يمكن أن يظهر في العمارة والوقف والخدمة الاجتماعية.

وهنا تتغير صورة نيلوفر. لم تعد المرأة التي جاءت من عالم آخر ثم استقرت في بيت أورخان. أصبحت امرأة تصنع لنفسها أثرًا في العالم الجديد.

ولعل أجمل ما يمكن أن يقال عنها أدبيًا هو أنها لم تحاول أن تمحو ماضيها كي تنتمي إلى حاضرها. ربما حملته معها ، ثم أضافت إليه شيئًا جديدًا.

وهذه هي طبيعة المدن أيضًا. فالمدن لا تولد من ذاكرة واحدة. إنها تتشكل من طبقات البشر الذين مروا بها ، ومن اللغات التي قيلت في أسواقها ، ومن البيوت التي تغير أصحابها ، ومن القصص التي بقي بعضها ، وضاع بعضها الآخر.

غير أن الكاتب حين يتعامل مع التاريخ يجب أن يظل يقظًا. فالخيال قد يمنحنا مشاهد جميلة ، لكنه لا يستطيع أن يحول الاحتمال إلى حقيقة.

لذلك ينبغي التمييز بين مستويين : مستوى التاريخ الذي يستند إلى المصادر والآثار ، ومستوى الرواية التي تستخدم الفراغات التاريخية لبناء احتمالات إنسانية.

إن قولنا إن أورخان أحب نيلوفر بالطريقة التي نعرفها اليوم يحتاج إلى دليل لا نملكه. وكذلك لا نستطيع الجزم بأن زواجهما كان خاليًا من المشاعر. كلا الاحتمالين ممكن ، لكن التاريخ الصارم لا يستطيع اختيار أحدهما بلا بينة.

ولهذا تبدو المسافة بين الحقيقة والخيال أجمل حين نحترمها.

نقول: ربما حدث.

ثم نضيف: وربما لم يحدث.

لكننا نستطيع أن نتخيل ما يمكن أن يعنيه حدوثه.

وهذا هو جوهر الأدب التاريخي.

إنه لا يزور الماضي ، بل يحاول أن يسمع صمته.

ربما لم يبدأ زواج أورخان ونيلوفر بقصة حب بالمعنى الذي تحبه الروايات الحديثة. وربما كان للسياسة والمكانة والعلاقات الاجتماعية دور في قيامه. لكن الإنسان يستطيع أن يحول العلاقات المفروضة إلى علاقات يختارها ، وأن يمنح الأيام معنى لم يكن موجودًا في بدايتها.

فالحب لا يدخل دائمًا من الباب الذي ننتظره. قد يأتي بعد الزواج، لا قبله. وقد يولد من العشرة الطويلة، ومن الاحترام ، ومن الخوف المشترك ، ومن طفل ينام في الغرفة المجاورة ، ومن مرض يقرّب المسافات ، ومن شيخوخة تجعل الإنسان يكتشف أن الوجه الذي اعتاد النظر إليه صار جزءًا من تعريفه لنفسه.

وربما كانت هذه هي القراءة الأعمق لعلاقة أورخان ونيلوفر.

ليست قصة فارس أحب أميرة من النظرة الأولى. وليست مجرد صفقة سياسية باردة.

إنها ، في صورتها الأدبية المحتملة ، رحلة طويلة بين شخصين جمعتهما ظروف أكبر منهما ، ثم منحتهما السنوات فرصة أن يصنعا لأنفسهما شيئًا يتجاوز تلك الظروف.

كان التاريخ يبني دولة. وكان البيت يبني إنسانين. وبين الاثنين، في المسافة التي لا تصل إليها الوثائق، يمكن أن تكون هناك حكاية حب هادئة؛ حب لا يصرخ، ولا يعرف متى بدأ، ولا يحتاج إلى شاهد.

حب يشبه التاريخ نفسه : يترك أثره، ثم يمضي.

نيلوفر خاتون
الأم التي خرج من بيتها رجلٌ سيصبح سلطانًا

في التاريخ نساءٌ يعبرن صفحاته كأنهن ظلال بعيدة ، لا نكاد نرى من حياتهن إلا اسمًا، ثم نكتشف ، بعد قرون، أن ذلك الاسم كان يقف خلف أبوابٍ كبرى، وأن يدًا نسائية هادئة كانت تفتح من داخل البيت أبوابًا دخل منها رجالٌ غيّروا وجه العالم.

من هؤلاء نيلوفر خاتون ، المرأة التي ارتبط اسمها بالتقاليد العثمانية بأورخان غازي، ثم بمراد الأول ، الذي أصبح ثالث سلاطين الدولة العثمانية. غير أن صورتها التاريخية لا تصلنا مكتملة. فالمصادر المتأخرة تختلف في أصلها ، وفي بعض تفاصيل حياتها ، وفي عدد الأبناء المنسوبين إليها. ولهذا فإن الحديث عنها يحتاج إلى قدر من الحذر؛ فالتاريخ حين يبتعد عن زمنه لا يحتفظ دائمًا بالوجه ، وإنما يحتفظ أحيانًا بالاسم ، ثم ينسج حوله ذاكرةً طويلة.

ومع ذلك ، فإن قصتها ، حتى في حدود ما يمكن تثبيته ، تكشف شيئًا أعمق من سيرة امرأة.

تكشف لحظة كان فيها الأناضول نفسه يتغير.

كان العالم القديم يتراجع ببطء ، والعالم الجديد لم يكن قد اكتمل بعد. البيزنطيون والعثمانيون ، الذين بدوا في كتب التاريخ كخصمين واضحين ، كانوا في الحياة اليومية أكثر تعقيدًا من ذلك. كانوا يتقاتلون ، ويتصاهرون ، ويتبادلون الأسرى ، ويتفاوضون ، ويعقدون التحالفات ، ويعيشون أحيانًا على مسافة قرية من بعضهم بعضًا.

وفي تلك المنطقة المعلقة بين إمبراطوريتين ، يمكن أن نفهم نيلوفر خاتون لا باعتبارها اسمًا في شجرة نسب فحسب، بل باعتبارها صورة لمرحلة تاريخية كاملة.

بيتٌ على حافة التحول

لا نملك مشهدًا موثوقًا عن طفولة نيلوفر ، ولا نستطيع أن نضع في يدها لعبةً معينة أو نسمّي الطريق الذي كانت تمشي فيه إلى بيت أبيها. وهذه إحدى مشكلات التاريخ القديم : إنه يخبرنا كثيرًا عن السلاطين ، وقليلًا جدًا عن النساء اللواتي صنعن عالمهم اليومي.

لكن يمكننا أن نتخيل المشهد دون أن ندعي أنه واقعة موثقة.

بيتٌ في الأناضول ، مساء ثقيل ، وأخبار الحرب تصل مع العابرين. رجلٌ يتحدث عن حصنٍ سقط ، وآخر عن جيشٍ اقترب ، وامرأةٌ تغلق النافذة قبل أن يهبط الليل.

كانت الحدود آنذاك لا تشبه الخطوط التي نراها على الخرائط الحديثة. لم يكن هناك خط مستقيم يفصل عالمًا عن عالم. كانت الحدود تتحرك مع الجيوش ، وتضيق وتتسع مع المصالح ، وقد تعبرها امرأة في يوم واحد من دون أن تعرف أنها عبرت من تاريخ إلى تاريخ.

وهنا تبدأ الدلالة الإنسانية في قصة نيلوفر.

فإذا صح ما استقر عليه التقليد من أصلها البيزنطي ، فإن انتقالها إلى البيت العثماني لم يكن مجرد انتقال امرأة إلى زوجها ؛ كان انتقالًا بين ثقافتين ، ولغتين ، وذاكرتين.

وربما كان السؤال الذي يرافق مثل هذه الزيجات أكبر من السؤال عن الحب.

كيف تعيش امرأة داخل بيتٍ لا يشبه بيتها الأول ؟ كيف تتعلم أن تصغي إلى لغة جديدة ؟ وكيف تحفظ شيئًا من طفولتها دون أن تصبح غريبة عن أبنائها ؟

لم تكن هذه الأسئلة تُكتب في سجلات الدولة ، لكنها كانت تُعاش في البيوت.

كان أورخان غازي في زمنه أكثر من رجلٍ يتزوج امرأة. كان رأس دولة ناشئة ، أو إمارة آخذة في الاتساع ، وكانت زيجات البيت الحاكم جزءًا من شبكة سياسية واجتماعية واسعة.

لكن السياسة ، مهما بدت باردة ، تدخل في النهاية إلى غرفة صغيرة ، وتجلس إلى مائدة ، وتصبح امرأة ورجلًا.

هنا يمكن للخيال الأدبي أن يقترب من الحقيقة دون أن يزعم امتلاكها.

تخيل أن نيلوفر ، في إحدى لياليها الأولى في البيت الجديد، قالت : **هل سيبقى كل شيء هنا كما كان ؟**

نظر إليها أورخان طويلًا ، ثم قال : **لا شيء يبقى كما كان.**

حتى الإنسان ؟

خصوصًا الإنسان.

صمتت.

كان في الجواب ما يكفي من الحقيقة ليخيفها.

فالإنسان في أزمنة التحول لا يختار دائمًا صورته الجديدة. أحيانًا تصنعها منه الظروف. يصبح ابنًا لبيت لم يولد فيه، وزوجًا في دولة لم يعرفها ، وأبًا لأبناء سيحملون أسماءً لا تشبه أسماء طفولته.

وهكذا يمكن أن نفهم الزواج نفسه باعتباره صورة مصغرة للأناضول.

كان العالمان يتواجهان بالسيف ، ثم يتداخلان بالمصاهرة.

والتاريخ لا يتحرك بالسيوف وحدها. أحيانًا يدخل من الباب امرأة.

الأم التي كان عليها أن تصنع رجلًا

حين يصبح الرجل سلطانًا ، يتذكر الناس يوم جلوسه على العرش ، وينسون السنوات الطويلة التي سبقته.

لكن السلطان لا يولد في قاعة العرش. يبدأ في غرفة. يتعلم الكلام من أم ، ويعرف الخوف من نظرتها ، ويقرأ العالم من صمتها ، ويتعلم معنى السلطة قبل أن يمسك السيف.

ولهذا فإن نيلوفر، سواء حملت وحدها مسؤولية تربية مراد أو شاركها فيها البيت السلطاني كما كان مألوفًا ، تصبح في الذاكرة رمزًا للأم التي وقفت عند البدايات البعيدة لرجل سيصبح لاحقًا سلطانًا.

مراد الأول لم يكن مجرد وريث ينتظر مكانه. لقد ظهر في مرحلة توسع عثماني كبرى ، وأصبح لاحقًا ثالث سلاطين الدولة العثمانية ، وقاد الدولة في مرحلة اتجه فيها مركز الثقل العثماني بصورة متزايدة نحو البلقان.

لكن قبل الجيوش كانت هناك طفولة. وقبل السلطان كان هناك طفل.

يمكن أن نتخيله يسأل أمه : **لماذا يختلف الناس عنا ؟**

فتجيبه : **لأنهم يرون العالم من المكان الذي يقفون فيه.**

ومن منا على حق ؟

تبتسم.

ليس كل من يختلف معنا مخطئًا، يا بني.

ربما لم تقل ذلك فعلًا. وربما لم يحدث الحوار قط.

لكنه يلخص مشكلة جيل كامل : كيف يعيش الإنسان في عالمٍ تتجاور فيه الهويات ، بينما يحاول كل طرف أن يقنع نفسه بأنه العالم كله ؟

كبر مراد.

وفي هذه الجملة القصيرة يختبئ زمن كامل.

كبرت معه الدولة ، وكبرت معها مسؤوليات البيت. لم تعد الأم تنظر إلى طفلها كما تنظر إليه بقية الأمهات . كان هناك دائمًا ظلّ المستقبل واقفًا خلف كتفه.

والأم في القصور تعرف شيئًا لا يعرفه المؤرخون : أن السلطة ليست مجدًا فقط. إنها خوف أيضًا.

كلما ارتفع الابن ، زاد عدد الذين ينظرون إليه. وكلما اقترب من العرش ، أصبح أقرب إلى الخطر.

ربما كانت نيلوفر تنظر إليه في بعض الليالي وهو نائم ، فتنسى الأمير ، وترى طفلها الأول فقط.

وهذا هو الجانب الإنساني الذي تخفيه السياسة.

الأم لا ترى في السلطان الذي سيأتي إلا ابنًا لم يكتمل نموه بعد.

وفي اللحظة التي كان فيها الآخرون يرون مراد وريثًا محتملًا ، ربما كانت هي تراه ذلك الصبي الذي تعلّم الوقوف في فناء البيت ، ثم تعثر ، ثم قام دون أن يمد يده إلى أحد.

من هنا تبدأ شخصية الحاكم. ليس من السيف. بل من السقوط الأول.

X

كانت نيلوفر ، وفق الرواية التقليدية ، ذات جذور بيزنطية ، ثم أصبحت جزءًا من البيت العثماني.

وهذه المسافة بين الأصل والانتماء تحمل معنى اجتماعيًا بالغ الأهمية.

فالهوية في الأناضول لم تكن دائمًا جدارًا صلبًا. كانت نهرًا. يدخل فيه ماء من مكان، وماء من مكان آخر، ثم يصبح من الصعب أن تعرف أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر.

لهذا فإن حياة نيلوفر يمكن قراءتها باعتبارها صورة لولادة مجتمع جديد من تداخل جماعات متعددة.

كانت اللغة تتغير. والأسماء تتغير. والولاءات تتبدل.

والأطفال الذين يولدون في هذه البيوت المختلطة يحملون في دمائهم ذاكرات لا يعرفون جميع تفاصيلها.

قد تكون نيلوفر قد احتفظت ببعض العادات الأولى ، أو ببعض الكلمات ، أو بطريقة خاصة في الدعاء ، أو بذكرى امرأة تركتها خلفها. وهذه التفاصيل ، وإن لم تسجلها المصادر ، هي من طبيعة الحياة الإنسانية في مثل هذه التحولات.

فالإنسان لا يهاجر بجسده فقط. يحمل معه رائحة البيت. وصوت الأم. وطريقة الأبواب حين تُغلق.

والأشياء الصغيرة التي لا يراها المؤرخون مهمة، لكنها تبقى أطول من القصور.

X

جاء اليوم الذي تغير فيه اسم مراد من أمير إلى سلطان. في السجلات، قد يكون ذلك تاريخًا. في حياة الأم، كان شيئًا آخر.

كان يعني أن الابن الذي كانت تخاف عليه من المرض والسقوط صار يحمل دولة على كتفيه.

أن الذين كانوا يدخلون البيت لزيارته سيقفون الآن أمامه.

وأن الكلمة التي تقولها الأم في الغرفة لن تكون هي الكلمة التي تُقال في مجلس الدولة.

وهنا يمكن تخيل حوار أخير بينهما :

قال مراد : **أمي ، لقد كبرت.**

نظرت إليه طويلًا.

أعرف.

ولماذا تنظرين إليّ كأنني ما زلت طفلًا ؟

قالت: **لأنك مهما كبرت، سيبقى في عيني يومٌ كنت فيه أصغر من هذا السيف.**

خفض مراد رأسه.

ثم قال : **أخشى أن أفشل.**

اقتربت منه وقالت : **الخوف لا يجعل الرجل ضعيفًا. الذي يجعله ضعيفًا أن يصدق أن الناس خلقوا ليخافوا منه.**

رفع عينيه إليها.

وماذا أفعل إذن؟

تذكر أن المملكة كبيرة ، لكن قلب الإنسان أصغر من أن يحمل الكراهية طويلًا.

مرة أخرى ، هذا الحوار من الخيال الأدبي ، لا من المصادر التاريخية. لكنه يمنح الشخصية صوتًا إنسانيًا يمكن أن يفسر لنا شيئًا من المعنى الاجتماعي الذي يتجاوز الأخبار الرسمية.

التاريخ حين ينسى النساء

توفيت نيلوفر خاتون في القرن الرابع عشر ، وتربطها الرواية العثمانية بوقفٍ خيري ومنشآت في مدينة إزنيق ، من بينها ما عُرف لاحقًا باسم جامع نيلوفر خاتون ، كما ارتبط اسمها بأعمال خيرية جعلت ذكراها تتجاوز حدود القصر.

لكن المفارقة أن آثار النساء كثيرًا ما تبقى بعد أن تختفي أصواتهن. يبقى المسجد. ويبقى الوقف. ويبقى الاسم على حجر.

أما السؤال عن شعورها ، وعن خوفها ، وعن الأيام التي بكت فيها بعيدًا عن أعين الناس، فيضيع غالبًا.

وهنا لا ينبغي للمؤرخ أن يملأ الفراغ باليقين. بل بالاحتمال.

أن يقول : ربما. وربما هي أجمل كلمات التاريخ حين لا نملك الدليل الكامل.

X

لم تكن نيلوفر خاتون ، في النهاية ، مجرد اسم بين أسماء أمهات السلاطين. إنها صورة لزمن كان يتشكل.

امرأة ارتبط أصلها ، وفق التقليد ، بالعالم البيزنطي ، ثم أصبحت جزءًا من البيت العثماني ، وأمًا لمراد الأول ، الرجل الذي سيصبح سلطانًا ويقود الدولة في واحدة من مراحل توسعها الكبرى.

ومن خلال قصتها يمكن أن نرى الأناضول نفسه : أرضًا لم تكن تعرف الحدود الصلبة التي نعرفها اليوم ، بل عرفت اللقاء والصراع والمصاهرة والهجرة والتحول.

لم تكن الدول تولد في ساحات الحرب وحدها. كانت تولد أيضًا في البيوت. في زواج امرأة برجل. في طفل يسمع لغتين. في أم تربي ابنًا يعرف أن العالم أكبر من جدار قصره.

وفي النهاية ، حين ننظر إلى مراد السلطان ، نميل إلى رؤية التاج والسيف والجيش.

لكن قبل كل ذلك كان هناك بيت. وكانت هناك أم. وكان هناك طفل لم يكن يعرف أن خطواته الصغيرة ستقوده يومًا إلى قلب التاريخ.

وربما لهذا فإن أعظم ما تقوله قصة نيلوفر ليس إن امرأة أنجبت سلطانًا. بل إن التاريخ نفسه قد يبدأ أحيانًا من مكان لا يلتفت إليه أحد.

من غرفة هادئة. من أمّ تنظر إلى طفلها. ومن امرأة تحمل في ذاكرتها عالمًا قديمًا ، ثم تراه يتحول أمام عينيها إلى عالم جديد.

وهكذا خرج من بيتها رجلٌ سيصبح سلطانًا.

لكن البيت ، في تلك اللحظة ، لم يكن بيتًا واحدًا. كان جسرًا بين عالمين.

وقف نيلوفر

مطبخ للفقراء ، حمام للناس ، دكان يؤمن دخلًا دائمًا ، أو جسر يختصر الطريق بين قريتين. وكان معنى الوقف أن يخرج المال من يد صاحبه ليدخل في حياة الجماعة.

ولذلك فإن نيلوفر لا تُفهم جيدًا إذا بقيت في إطار القصر.

الأقرب إلى حقيقتها التاريخية أن نراها وهي تنزل ، ولو رمزيًا ، من عالم القصور إلى عالم الناس ؛ إلى الطريق والطين والماء والسوق. هناك ، حيث لا يعرف الناس اسم الأمير إلا إذا احتاجوا إلى عدله ، ولا يتذكرون اسم السيدة إلا إذا تركت وراءها ما ينفعهم.

كانت بورصة مدينة ماء. الأنهار الصغيرة والجداول كانت تقطع السهل ، والماء الذي يبدو جميلًا من بعيد قد يتحول إلى عائق حين يأتي الشتاء أو تشتد الأمطار. كان العابر يقف أمام النهر ويحسب المسافة التي تفصله عن الضفة الأخرى. وربما كانت المسافة قصيرة ، لكن عبورها لم يكن كذلك.

ومن هنا يمكن أن نفهم معنى الجسر الذي ارتبط باسم نيلوفر.

تذكر المصادر أن نيلوفر خاتون أقامت جسرًا على مجرى مائي في سهل بورصة ، وأن النهر نفسه أصبح يعرف باسمها. كما تؤكد بلدية بورصة أن جسر نيلوفر التاريخي في منطقة هاسكوي يعود إلى القرن الرابع عشر، وأنه من أقدم الجسور الباقية في المدينة ، وقد بني بالحجر المقطوع والطوب.

لم يكن الجسر، في ذلك الزمن ، مجرد عمل هندسي. كان وعدًا صغيرًا للناس.

أن الطريق لن ينقطع. أن الفلاح يستطيع أن يصل إلى السوق ، وأن المسافر لا يضطر إلى الدوران بعيدًا ، وأن المرأة التي تحمل حاجتها إلى بيتها لن تقف حائرة أمام الماء. كان الجسر يختصر الطريق ، لكنه كان أيضًا يختصر الخوف.

يمكن أن نتخيل نيلوفر وهي تسأل أحد رجال البناء : كم يكلف الجسر ؟

فيجيب : المال ليس هو المشكلة، يا خاتون. المشكلة أن الماء لا يرحم من يخطئ حسابه.

فتنظر إلى المجرى طويلًا، ثم تقول : والماء لا يرحم الناس أيضًا.

يصمت الرجل.

تضيف : ابنوه بحيث يبقى بعدنا.

لم تكن تلك الكلمات ، بالطبع ، منقولة عن نيلوفر ، وإنما هي إعادة تخيلية للمشهد ، تستند إلى المعنى التاريخي المعروف من أعمالها الوقفية. فالتاريخ لا يمنحنا عادةً ما قيل في الغرف المغلقة ، وإنما يمنحنا ما بقي بعد أصحاب الغرف.

والذي بقي من نيلوفر هو هذا النوع من الأثر.

لقد كان الجسر صورةً صامتة لمرحلة كاملة من التاريخ. على ضفة تقف ذاكرة بيزنطة ، وعلى الضفة الأخرى عالم عثماني آخذ في التكوين. لم يكن العابر يسأل وهو فوق الجسر : من أين جاء هذا الحجر ؟ ومن أي قوم جاء هذا البنّاء ؟ كان يعبر وحسب.

وهنا تكمن المفارقة.

الحروب ترسم الحدود ، أما الجسور فتلغيها. السيف يقول : هذه أرضي. أما الجسر فيقول: هذه الطريق لنا جميعًا.

ولذلك فإن اسم نيلوفر ارتبط في الذاكرة العثمانية بالخير والعمران أكثر مما ارتبط بالحرب. تذكر المصادر لها مسجدًا وتكيةً في بورصة ، إلى جانب الجسر ، كما ارتبط اسمها بأعمال خيرية أخرى. وبعد وفاتها أقام ابنها السلطان مراد الأول في إزنيق عمارة خيرية باسمها ، عُرفت باسم زَاوِيَة نيلوفر خاتون ، وكان فيها إطعام للفقراء ، وجعلت لها موارد من قرى ووقفات ومحال تجارية وحمّام. وتشير المصادر إلى أن وفاتها كانت على الأرجح نحو سنة 1380، وأن قبرها موجود في مقبرة أورخان غازي في بورصة.

كان يمكن لمراد أن يتذكر أمه كما يتذكر الأبناء أمهاتهم : امرأةً كانت تجلس في البيت ، وتنتظر الأخبار ، وتخاف على ولدها حين يخرج إلى الحرب. لكن مراد اختار أن يتذكرها بطريقة أخرى. بنى لها مكانًا يطعم الجائع. وهذا اختيار له دلالته.

كأن الابن يقول لأمه بعد موتها : لن أترك اسمك في القبر. سأتركه في يد فقير يأكل ، وفي مسافر يستريح ، وفي عابر يجد ماءً وطعامًا.

وهكذا تحولت نيلوفر من امرأة في قصر إلى فكرة اجتماعية.

ولعل هذا هو الجانب الأجمل في قصتها.

إن المرأة التي بدأت حياتها ، بحسب الروايات المتأخرة ، في منطقة حدودية مضطربة ، وجدت نفسها في قلب أسرة حاكمة تنمو قوتها يومًا بعد يوم. كان يمكن للقصر أن يبتلعها. لكنه لم يفعل. أو لعلها هي التي رفضت أن يبتلعها.

فالحياة داخل القصر لم تكن سهلة بالضرورة. كان وراء الأبواب الذهبية قلق دائم : أبناء الأمراء ، صراعات السلطة ، أخبار الحملات ، موت الرجال ، وتبدل التحالفات. كانت المرأة في ذلك العالم تعيش بين الخاص والعام ؛ قلبها في البيت ، لكن البيت نفسه كان جزءًا من الدولة.

ولذلك ربما كان العمل الخيري بالنسبة إليها نوعًا من الخروج الهادئ من السياسة دون مغادرتها. فهي لا تحمل سيفًا ، لكنها تبني. لا تقود جيشًا ، لكنها تترك مؤسسة. لا تدخل معركة ، لكنها تغير الطريق.

وفي هذا المعنى ، يمكن النظر إلى الوقف بوصفه نوعًا من السلطة الناعمة في المجتمع العثماني المبكر ؛ سلطة لا تُمارس بالصوت العالي ، وإنما بالاستمرار. من يملك موردًا ويحبسه على الفقراء أو المسافرين يستطيع أن يترك أثرًا يتجاوز عمره الشخصي.

كان اسم نيلوفر يمر من فم إلى فم ، لا لأن الناس كانوا يروون سيرتها ، بل لأنهم كانوا يستخدمون ما تركته. وهذا هو المجد الأصعب. أن يصبح اسم الإنسان جزءًا من الحياة اليومية.

حين يمشي شخص فوق الجسر ، لا يفكر غالبًا في صاحبه. وحين يشرب ماءً من سبيل ، لا يسأل من وضعه. وحين يدخل مسجدًا أو يأكل في مطعم وقف ، قد لا يعرف اسم من أنشأه.

لكن التاريخ يعرف. والأهم أن الحياة تعرف.

كان نهر نيلوفر نفسه يحمل الاسم ، والجسر فوقه يحمل الذكرى. الماء يتحرك كل يوم ، ولا يحتفظ بشيء ، لكن الاسم بقي فوقه كأن الحجر علّم الماء كيف يتذكر.

وفي هذا يمكن أن نرى صورةً أكبر لتحول بورصة نفسها.

كانت المدينة تنتقل من بيزنطة إلى العثمانيين ، لكن الانتقال لم يكن لحظة واحدة. لم تستيقظ بورصة ذات صباح وقد تغير كل شيء. المدن لا تتغير هكذا. المدينة تشبه الإنسان ؛ تحتفظ في داخلها بما مات ، وتبني فوقه ما سيأتي. لذلك بقيت آثار قديمة ، وتغيرت الوظائف ، وتبدلت اللغة والسلطة ، بينما استمرت الطرق والأسواق والأنهار.

وكانت نيلوفر جزءًا من هذا التحول.

ليست جسرًا بين بيزنطة والعثمانيين بمعنى سياسي مباشر ، فذلك تعبير رمزي أكثر منه حقيقة تاريخية ، لكنها كانت ، في الذاكرة اللاحقة ، صورةً لزمن اختلطت فيه البيئات والناس والأنساب والمصالح. ولهذا اكتسبت قصتها قدرة خاصة على تجاوز حدود السيرة الفردية.

امرأة خرجت من منطقة حدودية ، ودخلت بيتًا حاكمًا ، ثم خرج اسمها من البيت إلى المدينة. من القصر إلى الطريق. من الطريق إلى الجسر. ومن الجسر إلى الذاكرة.

وربما لهذا السبب لا تبدو نهاية قصتها نهايةً حقيقية.

فالموت أغلق باب حياتها ، لكنه لم يغلق باب أثرها. بقي قبرها في بورصة إلى جوار أورخان ، وبقيت آثارها الوقفية في ذاكرة المدن. وفي عام 1388، بعد وفاتها على الأرجح ، اكتمل في إزنيق المبنى الذي أقامه ابنها مراد باسمها ، وكأن التاريخ أراد أن يمد حياتها قليلًا بعد موتها.

هناك، في إزنيق ، كانت امرأة غائبة تطعم أناسًا لم ترهم. وهنا تكمن قوة الوقف. إنه يجعل الإنسان حاضرًا بعد غيابه.

ولعل أجمل ما يمكن أن يقال عن نيلوفر ليس أنها كانت زوجة أورخان أو أم مراد ، فهذه الألقاب تعرّف موقعها في الأسرة ، لكنها لا تشرح شخصيتها في التاريخ. الأجمل أن يقال إنها فهمت ، في زمن كانت الدول فيه تقاس بالحصون والجيوش ، أن المجتمع يحتاج إلى شيء آخر أيضًا : إلى طريق ، وإلى ماء ، وإلى مكان يأوي إليه الفقير ، وإلى يد تمتد قبل أن يُطلب منها. لهذا بقي الجسر. لا لأنه أعظم آثار القرن الرابع عشر، ولا لأنه أضخمها، بل لأنه يحمل معنى بسيطًا يستطيع كل إنسان أن يفهمه.

ضفتان تفصل بينهما المياه. وجسر يصل بينهما.

وهذا ، في جوهره ، هو تاريخ نيلوفر.

لم تكن حياتها خالية من الغموض ، ولا رواياتها كلها قابلة للتصديق ، بل إن بعض تفاصيل قصتها الأولى تظل محل نقاش بين المؤرخين. لكن التاريخ لا يحتاج دائمًا إلى أسطورة كاملة حتى يصنع منها معنى. أحيانًا تكفي حقيقة واحدة : امرأة من القرن الرابع عشر تركت وراءها وقفًا وجسرًا واسمًا ما زال يعيش.

وهكذا يصبح الجسر أكثر من حجارة فوق ماء. إنه جسر بين الماضي والحاضر، بين الخاص والعام ، بين حياة امرأة لم نعرف صوتها الحقيقي وحياة أجيال ما زالت تعرف اسمها.

وحين يعبر الناس فوق الماء ، لا يعبرون فوق تاريخ نيلوفر فقط. إنهم يعبرون فوق سؤال قديم لا يزال حيًا :ماذا يبقى من الإنسان حين يذهب ؟ قد يبقى قصر. وقد تبقى معركة. وقد يبقى كتاب.

لكن نيلوفر اختارت ، أو اختار التاريخ لها ، شيئًا أكثر بساطة وأشد بقاءً : أن يبقى الطريق مفتوحًا.

وهذا ربما هو أجمل ما يمكن أن تفعله يدٌ بشرية في مدينةٍ لا تكف عن العبور.

حين يصمت التاريخ... تتكلم الحكاية
أورخان ونيلوفر بين الحقيقة والخيال

أين تنتهي الحقيقة ، وأين يبدأ الخيال ؟

ربما كانت هذه هي النقطة التي ينبغي أن يتوقف عندها القارئ قليلًا ، قبل أن يفتح باب الحكاية ويمضي في طرقاتها، فالتاريخ ليس دائمًا كتابًا مكتمل الصفحات ، ولا يروي لنا كل ما حدث خلف الأبواب المغلقة ، ولا يخبرنا بما دار في القلوب حين كانت الجيوش تعبر الحدود ، والبيوت تتغير ، والنساء يتركن أوطانًا خلفهن ليصبحن جزءًا من أوطان جديدة.

وفي تلك المساحات الصامتة بين الوقائع ، يولد الأدب.

لكن الأدب التاريخي ، حين يكون أمينًا ، لا يدّعي أن خياله وثيقة ، إنه يعرف أن للحقيقة حرمتها ، وأن للخيال مجاله. يستطيع أن يضيء الظلال ، لكنه لا ينبغي أن يمحو الحدود بين ما نعرفه وما نتخيله.

وهنا تبدأ حكاية أورخان ونيلوفر خاتون.

كان القرن الرابع عشر زمنًا مضطربًا في الأناضول. كانت الإمارات تتبدل ، والحدود تتحرك ، والمدن تنتقل من يد إلى أخرى ، بينما كانت بقايا العالم البيزنطي تواجه صعود قوى جديدة في آسيا الصغرى ، وفي هذه البيئة ظهر أورخان بن عثمان ، ثاني حكام البيت العثماني ، ليواصل ما بدأه والده عثمان ، ولكن على نطاق أوسع وأكثر تنظيمًا.

لم تكن الدولة في ذلك الوقت إمبراطورية بالمعنى الذي عرفه العثمانيون بعد قرون ، كانت مشروعًا صاعدًا ، يعيش بين السيف والسياسة ، وبين التحالف والزواج ، وبين الحرب والحاجة إلى بناء المدن والإدارة.

كان أورخان ابن مرحلة لم يكن فيها الانتصار العسكري كافيًا.

فالمدينة التي تُفتح بالسيف تحتاج بعد ذلك إلى قاضٍ ، وسوق ، ومسجد ، وطريق ، ومخزن للحبوب ، ورجال يعرفون كيف يحفظون الأمن ، وكان الحاكم الذي يريد البقاء بحاجة إلى أن يفكر في اليوم التالي للمعركة ، لا في لحظة النصر وحدها.

وفي هذا العالم تظهر نيلوفر خاتون في الذاكرة العثمانية.

تروي الروايات العثمانية المتأخرة أنها كانت امرأة بيزنطية ارتبطت بأورخان ، وأن اسمها عُرف لاحقًا باسم نيلوفر خاتون. غير أن تفاصيل أصلها ، وكيفية ارتباطها بأورخان ، وما جرى في تلك المرحلة تحديدًا ، ليست جميعها ثابتة بالدرجة نفسها في المصادر المعاصرة للحدث.

وهنا تبدأ المسافة بين التاريخ والرواية.

فقد أحب المؤرخون اللاحقون أن يملؤوا الفراغات ، وأن يمنحوا الشخصيات القديمة أصواتًا ووجوهًا ومشاعر ، أما المؤرخ الحديث فيتوقف أمام تلك الروايات ويسأل : ما الذي يمكن إثباته ؟ وما الذي ظهر بعد ذلك بقرون ؟

ولعل أجمل ما في التاريخ أنه لا يخاف من هذا السؤال.

لأن نيلوفر ، سواء عرفنا كل تفاصيل حياتها أم لم نعرف ، بقي اسمها حاضرًا في الذاكرة العثمانية ، وربطتها التقاليد العثمانية بأورخان

، وأصبحت أمًا لمراد الأول ، الذي سيصبح لاحقًا أحد أبرز سلاطين الدولة العثمانية في طور توسعها الأوروبي.

وهكذا خرجت امرأة من هامش الرواية إلى قلب التاريخ الأسري والسياسي.

لكن ماذا كان يحدث في داخلها ؟

هنا لا يملك المؤرخ جوابًا قاطعًا ، ويمكن للأدب وحده أن يفتح هذه النافذة ، بشرط أن يقول للقارئ : هذه نافذة تخيلية ، وليست وثيقة.

تخيل مدينة على تخوم عالمين ، في الخارج ، أصوات الخيل ، وفي الداخل ، امرأة تنظر إلى الطريق الذي لم تعد تعرف أين ينتهي.

لم تكن تعرف أن اسمها سيعيش بعد قرون. لم تكن تعرف أن مؤرخين سيختلفون في أصلها، وأن رواة سيحيكون حولها قصصًا كثيرة. كانت تعرف شيئًا واحدًا فقط: أن العالم الذي عرفتْه يتغير.

ولعل أكثر ما يرعب الإنسان ليس الرحيل نفسه ، بل أن يرحل دون أن يعرف ماذا ينتظره.

في تلك اللحظة ، لا يصبح الوطن أرضًا فقط.

يصبح صوت أم ، ورائحة بيت ، وشجرة يعرف الإنسان ظلها منذ طفولته.

وربما كان هذا هو الثمن الصامت لكل انتقال سياسي كبير : أن تُرسم الحدود على الخرائط ، بينما تُمحى خرائط صغيرة داخل القلوب.

ولو أردنا أن نتخيل حوارًا بين أورخان ونيلوفر ، فينبغي ألا نقدمه على أنه حوار تاريخي محفوظ . لكنه يستطيع أن يكون حوارًا أدبيًا يعكس الصراع الإنساني الذي يمكن أن ينشأ بين شخصين جاء كل منهما من عالم مختلف.

قالت له ، في المشهد المتخيل : هل يتغير الإنسان عندما يتغير المكان ؟

نظر إليها طويلًا ، ثم قال : أحيانًا يتغير المكان أولًا ، ثم يجبر الإنسان على أن يتغير معه.

قالت : وماذا عن الأشياء التي نتركها خلفنا ؟

أجاب : تبقى فينا أكثر مما نظن.

سكتت قليلًا.

ثم قالت : إذن لا أحد يغادر وطنه كاملًا.

ابتسم أورخان ابتسامة صغيرة.

ولا أحد يصل إلى وطن جديد كاملًا.

هذا الحوار ليس في المصادر ، لكنه يعبّر عن حقيقة إنسانية يمكن أن تختبئ خلف الوقائع السياسية. فزواج الأسر الحاكمة لم يكن دائمًا قصة عاطفية بالمعنى الحديث. كان الزواج في عالم الإمارات والسلطنات أداة سياسية واجتماعية ، وجسرًا بين جماعات مختلفة ، ووسيلة لبناء الروابط أو تثبيت النفوذ.

ومع ذلك، لا يعني ذلك أن المشاعر الإنسانية كانت غائبة.

فالإنسان يظل إنسانًا ، حتى حين يعيش داخل نظام سياسي قاسٍ.

كان بإمكان المرأة أن تكون جزءًا من سياسة كبرى ، وأن تكون في الوقت نفسه أمًا تخاف على أبنائها ، وزوجة تبحث عن مكانها ، وغريبة تحاول أن تفهم لغة جديدة وعادات جديدة ومدينة جديدة.

وهنا تصبح نيلوفر شخصية أدبية شديدة الثراء.

ليست فقط امرأة انتقلت من عالم إلى عالم ، بل صورة للإنسان الذي يجد نفسه داخل التحولات الكبرى دون أن يختار دائمًا موقعه فيها.

X

ومع اتساع نفوذ أورخان ، لم تعد الدولة الناشئة مجرد مجموعة من الغزاة المتحركين بين القلاع ، بدأت المؤسسات تأخذ شكلًا أكثر وضوحًا ، وأصبحت المدن مراكز للحكم والاقتصاد والدين.

وفي هذه المرحلة برز دور النساء في بناء الحياة الاجتماعية والدينية من خلال الأوقاف والأعمال الخيرية ، وهو جانب لا يحظى دائمًا بالاهتمام نفسه الذي تحظى به المعارك.

فالسلطة لا تُبنى بالسيوف وحدها ، هناك يد تبني مسجدًا ، وأخرى تطعم فقيرًا ، وثالثة تنشئ سبيلًا للماء ، ورابعة تربي طفلًا سيصبح يومًا ما رجل دولة.

وفي هذا السياق ارتبط اسم نيلوفر خاتون لاحقًا بأعمال خيرية ومؤسسات وقفية ، وأصبح اسمها حاضرًا في الذاكرة العمرانية والدينية للحقبة العثمانية المبكرة.

وهنا تتغير صورة المرأة مرة أخرى ، لم تعد مجرد شخصية في قصة زواج ، بل أصبحت جزءًا من مجتمع كان يتشكل ببطء.

إن التاريخ الذي يركز على السلاطين وحدهم يشبه مدينة ينظر إليها المرء من أعلى أسوارها، لكنه لا يدخل بيوتها.

أما التاريخ الاجتماعي ، فينزل إلى الأزقة ، يسمع الباعة ، يرى الأطفال ، يتتبع النساء في الأسواق.

ويلاحظ أن الدولة ، في نهاية الأمر ، ليست قصرًا فقط ، بل حياة يومية يعيشها آلاف الناس.

X

أما أورخان ، فكان يقف في مركز هذا التحول.

كان أمامه إرث أبيه ، لكنه لم يكن قادرًا على الاكتفاء به، كان عليه أن يحول قوة القبيلة إلى دولة أكثر استقرارًا ، وأن يربط بين القوة العسكرية والإدارة.

وهنا تكمن أهمية عهده.

لم يكن الرجل الذي فتح أبوابًا فحسب ، بل كان واحدًا من الذين ساهموا في نقل المشروع العثماني من مرحلة التأسيس الأولى إلى مرحلة أكثر تنظيمًا واتساعًا.

ثم جاء ابنه مراد.

وهنا تكتمل دائرة الحكاية.

فالطفل الذي كان يمكن أن يكون تفصيلًا عائليًا صغيرًا ، سيصبح سلطانًا ، وسيواصل توسيع الدولة نحو أوروبا ، وستتغير في عهده موازين القوة في المنطقة.

وعندما ننظر إلى التاريخ من هذه المسافة ، تبدو الأشياء الصغيرة أكثر أهمية.

كلمة تقال في بيت ، طفل يولد ، امرأة تدخل مدينة ، رجل يتخذ قرارًا ، مدينة تسقط ، حصن يُبنى.

كلها حلقات صغيرة في سلسلة طويلة لا يعرف أحد ، وهو يعيشها ، إلى أي نهاية ستقوده.

X

لكن المسلسلات التاريخية الحديثة تفعل شيئًا مختلفًا ، إنها تحتاج إلى الإيقاع ، إلى الصراع ، إلى الحوار ، إلى المؤامرة ، إلى لحظة يواجه فيها البطل خصمه، وإلى شخصية تدخل في الوقت المناسب لتقلب الأحداث.

ولهذا قد نرى شخصية تاريخية حاضرة في أحداث كثيرة لا تثبت المصادر حضورها فيها ، وقد نشاهد حوارات طويلة لا نملك عليها دليلًا ، أو خططًا عسكرية مفصلة لا نعرف إن كانت قد جرت بهذه الصورة.

وهذا ليس عيبًا في ذاته إذا كان العمل يعلن أنه دراما تاريخية.

المشكلة تبدأ عندما تتحول الدراما إلى حقيقة في ذهن المشاهد.

فمشهد نيلوفر وهي تتحدث مع أورخان لا ينبغي أن يُقرأ باعتباره تسجيلًا لما حدث ، ومشاعرها في لحظة الانتقال لا يمكن لأحد أن يجزم بها ، وتفاصيل الخطة العسكرية، إذا لم تذكرها المصادر، تبقى بناءً روائيًا.

أما الحقيقة الأوسع ، فهي أكثر تواضعًا وأكثر جمالًا.

نعرف أن أورخان حكم في مرحلة توسع الدولة العثمانية المبكرة ، ونعرف أن اسم نيلوفر خاتون ارتبط به في المصادر العثمانية اللاحقة ، ونعرف أن اسمها أصبح جزءًا من تاريخ الأسرة الحاكمة ، ونعرف أن مراد الأول ، المرتبط بها في التقليد التاريخي بوصفه ابنها ، أصبح سلطانًا مؤثرًا في مسيرة الدولة.

هذه الحقائق ليست قليلة ، بل إنها تكفي لبناء عالم كامل.

X

ربما لهذا لا يحتاج الأدب إلى أن يكذب كي يكون جميلًا ، إنه يحتاج فقط إلى أن يسأل الأسئلة التي تركها التاريخ بلا إجابات.

ماذا شعرت امرأة وهي تعبر من عالم إلى آخر ؟ كيف عاش رجل نشأ بين القبيلة والدولة لحظة تحوله إلى حاكم ؟ كيف كانت أم تنظر إلى ابنها وهي لا تعرف أن التاريخ سيحفظ اسمه ؟ كيف يشعر الإنسان عندما يصبح جزءًا من قصة أكبر منه ؟

هذه الأسئلة لا تملك الوثائق أجوبتها دائمًا ، لكنها تمنح الأدب حق الاقتراب منها.

والأدب الجيد لا يسرق مكان التاريخ ، إنه يقف بجواره ، يشير إلى الباب المغلق ويقول : هنا لا نعرف.

ثم يفتح باب الخيال، لا ليقول : هذا ما حدث

بل ليقول : ربما كان يمكن أن يحدث شيء كهذا

وهذه الكلمة الصغيرة - ربما - هي الفاصل الأخلاقي بين الرواية التاريخية والتزوير.

X

في النهاية ، لا ينبغي أن نبحث عن نيلوفر خاتون في القصص المصورة وحدها ، ولا عن أورخان في مشاهد المعارك فقط.

علينا أن نراهما داخل زمنهما ، زمن كانت فيه الحدود رخوة ، والهويات متداخلة ، والزواج سياسة ، والحرب وسيلة للبقاء ، والمدينة مشروعًا سياسيًا ، والمرأة جزءًا من شبكة اجتماعية أوسع مما تصوره الروايات البطولية وحدها.

أما ما لا نستطيع إثباته ، فيمكن أن يبقى جميلًا في مكانه الصحيح : في الخيال.

وهناك ، حيث لا تزاحم الرواية الوثيقة ، يستطيع الأدب أن يفعل شيئًا نادرًا ، أن يعيد إلى الشخصيات التاريخية إنسانيتها.

فالتاريخ يخبرنا أن أورخان حكم ، وأن نيلوفر ارتبط اسمها بأسرة عثمان ، وأن مراد جاء بعدهما ليواصل مسيرة التوسع.

لكن الأدب يسأل : ماذا كان يعني أن يعيش هؤلاء البشر داخل تلك اللحظة ؟

وهنا ، ربما، تبدأ الحكاية الحقيقية ، ليس حين نزعم أننا نعرف كل شيء، بل حين نعترف بما لا نعرفه ، فالحقيقة لا تحتاج إلى زخرفة كثيرة ، والخيال لا يحتاج إلى أن ينتحل اسم الحقيقة.

بينهما مساحة واسعة، تشبه الفجر؛ لا هي ليل كامل، ولا نهار مكتمل ، وفي تلك المساحة يقف الراوي ، ينظر إلى الماضي ، يُنصت إلى صمته ، ثم يكتب.

لا ليقول للقارئ : هذا ما حدث

بل ليقول : هذا ما بقي لنا من الحقيقة... وهذا ما يستطيع الخيال أن يضيئه دون أن يطمسها

وهنا ، بالضبط ، تنتهي الحقيقة ويبدأ الخيال.

امرأة بين عالمين

نيلوفر بين ذاكرة القلعة وميلاد الدولة

حين يصبح الإنسان جسرًا بين زمنين

ربما تكون أجمل قراءة لقصة نيلوفر أنها ليست حكاية «أميرة اختُطفت» فحسب ، ولا حكاية «أمير أحب امرأة من معسكر أعدائه». إن اختصارها في هذا الجانب يجعلها أقرب إلى حكاية غرام عابرة ، بينما تكشف طبقاتها الأعمق عن شيء آخر : **قصة التحول**.

إنها قصة إنسان يولد في عالم يظنه ثابتًا ، ثم يكتشف ، في لحظة واحدة ، أن العالم الذي عرفه ليس سوى صورة مؤقتة. القلاع التي تبدو أبدية قد تسقط ، والحدود التي تبدو مقدسة قد تتبدل ، واللغة التي كانت غريبة قد تصبح لغة البيت ، والعدو الذي كان يسكن الجهة الأخرى من الجدار قد يصبح أبًا لأبنائك.

وفي قلب هذا التحول تقف نيلوفر ، الشخصية التي ترد في الروايات التاريخية باسم هولوفيرا أو نيلوفر خاتون ، والتي ارتبط اسمها بأورخان بن عثمان ، ثاني سلاطين الدولة العثمانية. وتختلف الأخبار التاريخية في تفاصيل أصلها وكيفية انتقالها إلى العالم العثماني ، كما امتزجت الرواية الشعبية بالمعلومة التاريخية عبر القرون. لذلك فإن إعادة تخيل حياتها لا ينبغي أن تقدم الخيال على أنه وثيقة ، بل أن تستعين بالخيال الأدبي لملء المساحات التي تركها التاريخ صامتة.

فالتاريخ يسجل الأسماء والزيجات والمواليد والوقائع الكبرى ، لكنه نادرًا ما يسجل ارتجافة القلب ، أو خوف امرأة في ليلة غريبة ، أو السؤال الذي قد يظل معها سنوات : **هل يمكن للإنسان أن يحب حياته الجديدة من غير أن يخون حياته القديمة ؟**

في طفولتها ، كانت القلعة عالمًا كاملًا . لم تكن تعرف أن خلف الأسوار بلادًا أخرى ، وأن وراء الأفق قبائل وجيوشًا وسلاطين ، وأن الطرق التي تراها من نافذة عالية قد تحمل يومًا غربا ء يغيرون مصير المكان.

كانت تعرف فقط الممرات الحجرية ، وصوت الأقدام فوق الدرج ، ورائحة الخبز في الصباح، وأصوات النساء في أجنحة القصر، والحديقة الصغيرة التي كانت تبدو لها أوسع من الدنيا.

كانت القلعة وطنًا لأنها كانت أول مكان عرفته.

والإنسان لا يحتاج إلى خرائط حين يكون طفلًا. يكفيه وجه أمه ، وصوت أبيه ، وباب غرفته ، وشجرة يعرف ظلها.

لذلك لم تكن هولوفيرا ترى القلعة حصنًا سياسيًا ، بل كانت تراها ذاكرة حية. كانت الأحجار بالنسبة إليها وجوهًا ، والنوافذ حكايات ، والأبواب حدودًا بين أسرار الطفولة.

ثم جاء اليوم الذي تغير فيه معنى كل شيء.

لم تسقط القلعة في لحظة واحدة بالضرورة ، لكن شيئًا في داخلها سقط. فالخطر لا يبدأ دائمًا عندما تُفتح الأبواب بالقوة ؛ أحيانًا يبدأ عندما يشعر أهل القلعة أن العالم الذي خارجها أصبح أقوى من قدرتهم على إبعاده.

وفي مثل هذه اللحظات ، لا يكون الإنسان مستعدًا لأن يفقد وطنه. الوطن لا يغادر الإنسان حين يغادر المكان، إنه يبقى فيه.

وهذا ما سيجعل رحلة نيلوفر طويلة ، حتى بعد أن تنتهي المسافة بين القلعة والبيت الجديد.

كان الانتقال من عالم إلى عالم أشبه بالعبور فوق جسر لا يمكن العودة منه.

في الطريق ، لم تكن تعرف نيلوفر ماذا ينتظرها. وربما كان أكثر ما يؤلمها أنها لم تكن تعرف حتى أي سؤال ينبغي أن تطرحه.

هل تخاف ؟ نعم.

هل تكره ؟ ربما.

هل تتمنى العودة ؟ بالتأكيد.

لكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد داخل لحظة واحدة.

كان عليها أن تتعلم بسرعة أن الحياة الجديدة لها قوانينها ، وجوه جديدة ،. ملابس جديدة ، أصوات جديدة ، عادات لم تفهمها منذ اللحظة الأولى ، ثم لغة تتسلل إليها ببطء ، كلمة بعد كلمة ، حتى تصبح الكلمات الغريبة مألوفة ، والمألوف القديم غريبًا.

وهنا تبدأ الحكاية الحقيقية.

فالمسافة بين عالمين ليست مسافة جغرافية ، إنها مسافة داخل القلب.

وفي مساء هادئ ، يمكن تخيل نيلوفر وهي جالسة وحدها ، تنظر إلى السماء. النجوم نفسها التي كانت تراها فوق القلعة ما زالت في مكانها. وحدها الأرض تغيرت.

قالت لنفسها : كيف يمكن للسماء أن تبقى كما هي ، بينما تغير كل شيء تحتي ؟

ولم يجبها أحد.

X

في الرواية الشعبية ، يسهل أن نجعل اللقاء بين نيلوفر وأورخان قصة حب بسيطة : رجل وامرأة جمعتهما الأقدار رغم اختلاف الطرفين. لكن النفس البشرية أكثر تعقيدًا.

فالحب، إن جاء ، لا يمحو الماضي ، ولا يستطيع الإنسان أن يستيقظ صباحًا فيجد ذاكرته قد تغيرت لأن حياته تغيرت.

كان أورخان بالنسبة إلى نيلوفر في البداية ابن العالم الذي اقتحم عالمها.

وكان من الطبيعي أن يكون بينهما جدار لا تراه العين.

وربما كان أورخان يدرك ذلك.

في حوار متخيل بينهما ، بعد أن بدأت سنوات الغربة تخفف حدتها، قال لها : أنت تنظرين إليّ أحيانًا وكأنك ترين شخصًا آخر خلف وجهي .

أجابته : لأنني لا أراك وحدك. أرى خلفك جيشًا ، وراية ، وبلادًا لم أعرفها.

سكت قليلًا ، ثم قال : وهل تستطيعين يومًا أن تريني أنا فقط ؟

نظرت إليه طويلًا.

لا أدري.

ابتسم ابتسامة خفيفة.

إذن لا تستعجلي.

كانت تلك الجملة ، في بساطتها ، أكثر عمقًا من وعود الحب.

فالحياة المشتركة لا تبدأ عندما ينسى أحد الطرفين ماضيه ، بل عندما يتعلم الطرف الآخر احترام ذلك الماضي.

ولعل نيلوفر ، مع مرور الزمن ، بدأت تكتشف أن الرجل الذي أمامها ليس صورة مطابقة للعدو الذي سكن ذاكرتها. كان له خوفه ، وأحلامه ، ومسؤوليته ، وضعفه أيضًا.

وكان أورخان ، من جهته ، يرى في المرأة القادمة من العالم الآخر شيئًا لم يكن موجودًا في عالمه وحده : ذاكرة مختلفة ، ونظرة أخرى إلى الأشياء، وقدرة على العبور بين ثقافتين.

هكذا يتحول الاختلاف ، شيئًا فشيئًا ، من جدار إلى نافذة.

لم تكن نيلوفر هي الفتاة نفسها التي غادرت القلعة ،هذه حقيقة نفسية قبل أن تكون حقيقة تاريخية.

فالإنسان الذي يعبر تجربة كبرى لا يعود إلى نفسه الأولى ، حتى لو عاد إلى المكان نفسه.

لقد تعلمت نيلوفر أن تنظر إلى السلطة من الداخل ، وأن ترى كيف تولد الدول ، وكيف تتغير المدن ، وكيف تتحول الجماعات الصغيرة إلى كيان سياسي أكبر ، وكان العالم العثماني في تلك المرحلة عالمًا في طور التشكل ، تتوسع فيه الحدود وتتبدل التحالفات وتتشابك المصالح.

وسط ذلك كله ، لم تعد المرأة مجرد شخصية تنتظر ما يقرره الرجال.

لقد أصبحت جزءًا من البيت الجديد ، ومن شبكة العلاقات التي تربط الأسرة بالحكم والمجتمع. وفي الروايات التاريخية اللاحقة ارتبط اسمها أيضًا بأعمال خيرية ومؤسسات وقفية ، وهي صورة تفتح بابًا مهمًا لفهم مكانة المرأة في المجتمع العثماني المبكر.

وهنا يمكن أن نتخيل نيلوفر وقد اكتشفت أن الإنسان يستطيع أن يبني شيئًا جديدًا دون أن يهدم كل ما كانه.

لم تعد القلعة وطنها الوحيد ، صار لها وطن آخر ،ولم تعد ذكرياتها عبئًا دائمًا ، صارت مصدرًا لفهم نفسها.

ثم جاءت الأمومة ، وفي الأمومة ، يتغير معنى الوطن مرة أخرى.

فالمرأة التي فقدت وطن طفولتها قد تجد نفسها أمام أطفال يسألونها عن العالم الذي لم يعرفوه.

أين كنتِ تعيشين قبل أن نولد ؟

سؤال صغير يمكن أن يفتح بابًا على عمر كامل.

ربما كانت نيلوفر تجلس مع أبنائها في المساء ى، وتحدثهم عن قلعة بعيدة ، وعن حديقة قديمة ، وعن شتاء كانت نوافذه ترتجف فيه من البرد ، وعن أناس لم يعودوا جزءًا من حياتها إلا في الذاكرة.

كان الأطفال ينصتون.

ثم يسأل أحدهم : » وهل كنتِ سعيدة هناك؟«

وهنا يصعب الجواب.

فالسعادة ليست مكانًا واحدًا.

تقول : كنت صغيرة.

وكأنها بذلك تجيب عن كل شيء.

لقد فهمت مع الزمن أن الوطن ليس فقط المكان الذي ولدنا فيه، بل المكان الذي نُسجت فيه أولى صورنا عن أنفسنا.

ثم يصبح الإنسان قادرًا على أن يحمل أكثر من وطن في داخله.

X

حين نكتب عن نيلوفر، ينبغي أن نفرق بين ما تقوله المصادر التاريخية وما ينسجه الخيال الأدبي.

فالمصادر لا تمنحنا دفتر يوميات خاصًا بها ، ولا تسجل كل حوار دار بينها وبين أورخان ، ولا تخبرنا بما شعرت به في كل ليلة من ليالي حياتها.

وهنا يأتي الأدب.

ليس ليكذب على التاريخ ، بل ليطرح الأسئلة التي لم يستطع التاريخ أن يسجل أجوبتها.

يمكن للكاتب أن يتخيل ، ولكن عليه أن يعرف أنه يتخيل ، يمكنه أن يمنح الشخصية صوتًا، بشرط ألا يحول الصوت المتخيل إلى حقيقة موثقة.

وبهذه الطريقة تصبح نيلوفر أكثر من اسم في سجل السلالات.

تصبح إنسانة.

والإنسان هو أكثر ما يضيع عندما نكتب التاريخ بلغة الأرقام وحدها.

تخيلوا نيلوفر في آخر الليل.

كبر أبناؤها ، اتسعت الدولة ، تغيرت الوجوه.

الأطفال الذين كانوا يسألونها عن القلعة صاروا رجالًا ونساء ، والطرق القديمة تبدلت ، والمدينة التي كانت غريبة أصبحت مألوفة.

تجلس وحدها.

يدخل أحد أبنائها.

أما زلت تذكرين القلعة ؟

تنظر إلى بعيد.

لا أنساها.

وهل تشتاقين إليها ؟

تصمت طويلًا.

ثم تقول : أشتاق أحيانًا إلى الفتاة التي كنتها هناك.

يفكر قليلًا ، ثم يسأل : ولا تشتاقين إلى العودة ؟

تبتسم.

العودة إلى أين ؟

إلى وطنك الأول .

تخفض عينيها.

لقد تغير الوطن

أم أنت التي تغيرت ؟

تبتسم من جديد.

ربما الاثنان .

يصمت.

ثم تقول : كنت أظن أنني إذا غادرت القلعة فقد فقدت كل شيء ، ثم عرفت أن الإنسان يستطيع أن يفقد مكانًا ، لكنه لا يفقد بالضرورة نفسه

، يستطيع أن يبني بيتًا آخر ، وأن يحب أشخاصًا لم يعرفهم ، وأن يرى أبناءه يكبرون في أرض لم تكن أرض طفولته .

يرفع رأسه إليها.

وهل أنت سعيدة ؟

تنظر إلى النار.

السعادة ليست أن تنسى ما مضى .

ثم تضيف : السعادة أن تستطيع أن تتذكره من غير أن تعيش فيه.

X

ربما يكون هذا هو المعنى الأعمق في قصة نيلوفر : أنها لم تكن امرأة بين عالمين فقط ، بل كانت امرأة تحمل عالمين في داخلها.

في ذاكرتها بقيت القلعة ، وفي حياتها الجديدة نشأت مدينة أخرى من العلاقات والبيوت والأبناء واللغة والعادات.

لم يكن عليها أن تختار بين ماضيها وحاضرها اختيارًا كاملًا.

لقد حملت الماضي إلى المستقبل ، ثم أعادت تشكيله.

ولهذا فإن قصتها ، إذا قرأناها بعيدًا عن الصورة الأسطورية المبسطة ، تصبح قصة الإنسان حين تضطره الحياة إلى إعادة تعريف نفسه.

فالحدود التي يرسمها التاريخ على الخرائط لا تبقى دائمًا داخل القلب ، قد يكون الإنسان ابن مدينة ، ثم يصبح ابن مدينة أخرى ، وقد يولد داخل ثقافة ، ثم يكتشف أنه قادر على أن يصنع لنفسه مكانًا في ثقافة مختلفة ، وقد يبدأ حياته بوصفه ضحية للظروف ، ثم يتحول ، مع الزمن ، إلى شخصية فاعلة في عالم جديد.

وهكذا لا تصبح نيلوفر مجرد امرأة انتقلت من قلعة إلى قصر ، أو من عالم إلى آخر.

تصبح صورة للإنسان الذي لا يملك أن يختار كل ما يحدث له ، لكنه يستطيع أن يختار ، شيئًا فشيئًا ، **ماذا يفعل بما حدث له**.

ولعل أجمل ما يمكن أن يقوله التاريخ عن امرأة لم يحفظ صوتها كاملًا ، هو أن صمتها نفسه صار مساحة للخيال.

نراها في آخر المشهد، وقد هدأت العاصفة ، لا تعود القلعة تطاردها ، ولا يطلب منها الماضي أن تعود.

تفتح النافذة ، تنظر إلى الفجر ،

ثم تقول في سرها : لم أعد تلك الفتاة .

وتتوقف لحظة.

لكنها ما زالت تسكنني .

ثم تمضي ، لا إلى القلعة ، ولا هربًا منها ، بل إلى الأمام.

إلى العالم الذي صنعته الأيام منها ، وصنعته هي ، في المقابل ، من قلبها.

وهنا تنتهي حكاية الأميرة، وتبدأ حكاية المرأة.

حين يصبح الجسر أبلغ من السيف
نيلوفر خاتون بين ضفتي بيزنطة والعثمانيين

لم يكن قيام الدولة العثمانية حكاية سيوفٍ تتقاطع في ساحات القتال ، ولا سلسلةً من الانتصارات التي تُقاس بعدد القلاع التي سقطت تحت رايات الغازين ، كان وراء كل قلعةٍ بابٌ ، ووراء كل بابٍ بيت ،

ووراء كل بيتٍ عائلة تخاف ، وأمّ تنتظر ، وطفل لا يعرف لماذا تغيّر اسم الحاكم فوق مدينته.

في تلك المنطقة المضطربة من الأناضول ، حيث كانت الحدود بين البيزنطيين والأتراك المسلمين أشبه بخيطٍ رفيع يتبدّل موضعه مع كل حرب ، ظهرت قصص لم تكن السيوف وحدها قادرة على كتابتها. كانت المصاهرة ، والهجرة ، والأسر، والتجارة ، والتحالفات ، وحتى تبدّل الأسماء ، أدوات أخرى لصناعة التاريخ.

ومن بين هذه القصص تبرز شخصية هولوفيرا ، التي ارتبط اسمها في الذاكرة العثمانية باسم نيلوفر خاتون ، وهي شخصية تقع عند نقطة حساسة بين عالمين : عالم بيزنطي آخذ في الانحسار ، وعالم عثماني آخذ في التشكّل.

ولا تسمح لنا المصادر المتأخرة بأن نعرف كل تفاصيل حياتها بثقة كاملة ، فالروايات تختلف في أصل قصتها ، وفي ظروف انتقالها إلى بيت أورخان ، كما أن كثيرًا من التفاصيل التي شاعت حولها اختلط فيها التاريخ بالذاكرة الشعبية. لذلك لا ينبغي أن نتعامل مع كل مشهد بوصفه واقعة موثقة ، بل بوصفه إعادة بناء أدبية تستند إلى الإطار التاريخي العام ، وتمنح الصمت الذي تركته المصادر صوتًا إنسانيًا.

وهنا تبدأ الحكاية.

كانت مدن الأناضول في القرن الرابع عشر تعيش زمنًا لا يشبه الأزمنة الهادئة ، كانت القلاع البيزنطية تقف على التلال ، تراقب الطرق ، بينما كانت الإمارات التركمانية تتقدم في الأرياف والسهول. وكان الناس يتعلمون ، قبل الملوك والأمراء ، أن الحدود ليست خطًا مرسومًا على خريطة ، بل خوفًا يدخل البيوت.

في إحدى تلك اللحظات ، كان اسم هولوفيرا ينتمي إلى العالم الذي يقف خلف الأسوار ، عالمٍ يعرف الكنائس والقصور واللغة اليونانية والتقاليد البيزنطية ، لكنه كان يرى ، في الوقت نفسه ، أن الأرض من حوله تتغير.

ربما لم تكن تعرف أن حياتها ستصبح يومًا جزءًا من قصة دولة ستكبر بعد رحيلها بقرون ، وربما لم تكن تتخيل أن اسمها سيبقى مرتبطًا بأحد أبرز رجال الأسرة العثمانية.

كان كل شيء بالنسبة إليها أصغر من ذلك بكثير : بيت ، عائلة ، مدينة ، ومستقبل مجهول.

ثم جاءت اللحظة التي تغير فيها الطريق.

تروي الذاكرة العثمانية روايات متعددة عن انتقالها إلى عالم أورخان ، وبعض الروايات تجعل من الواقعة قصة أسر ، وأخرى تربطها بظروف سياسية واجتماعية مختلفة. ولا يمكن الجزم بكل جزئية ، لكن الثابت في الذاكرة اللاحقة أن هولوفيرا أصبحت نيلوفر ، وأنها دخلت بيت أورخان ، ثم ارتبط اسمها بالأسرة العثمانية.

وهنا لا يكون السؤال التاريخي : كيف حدث ذلك فقط ؟

بل يصبح السؤال الأعمق : ماذا يحدث للإنسان عندما ينتقل من عالم إلى عالم، بينما يظل جزء من ماضيه حيًا في داخله ؟

كان تغيير الاسم ، في الأزمنة القديمة ، أكثر من تبديل لفظٍ بلفظ ، فالاسم ذاكرة ، وهوية ، وموضع في المجتمع.

هولوفيرا أصبحت نيلوفر.

اسم جديد ، وبيت جديد ، ولغة جديدة ، وعادات جديدة ، ومجتمع لا يشبه المجتمع الذي جاءت منه ، لكن الإنسان لا يترك ماضيه عند عتبة البيت ، يحمل طفولته معه ، ويحمل الأصوات التي سمعها ، والوجوه التي أحبها ، والأماكن التي حفظ تفاصيلها دون أن يعرف أنها ستصبح يومًا جزءًا من الحنين.

كان يمكن أن يكون الحوار بينها وبين نفسها أكثر صدقًا من أي حوار مع الآخرين : هل تغيرتُ لأن اسمي تغير ؟

ثم يأتي صوتها الآخر : أم أن الإنسان يستطيع أن يحمل عالمين في قلب واحد ؟

لم يكن أورخان يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال كله. فقد كان هو نفسه يعيش زمن التحول ، لم يكن مجرد رجل محارب ، بل قائدًا لأسرة آخذة في بناء كيان سياسي جديد ، وكانت أمامه مدن يجب إخضاعها ، وتحالفات يجب نسجها ، وأرض يجب تثبيت النفوذ فيها.

ولذلك كان بيته امتدادًا لسياسته ، كما كانت سياسته تتأثر بما يحدث داخل بيته.

ومع ذلك ، فإن تحويل نيلوفر إلى مجرد أداة في لعبة سياسية ينتقص من إنسانيتها ، فالمرأة التي دخلت الأسرة العثمانية لم تكن ورقة على رقعة الشطرنج فحسب ؛ كانت إنسانة تعيد ترتيب حياتها كل يوم ، وتتعلم كيف تسكن مكانًا جديدًا دون أن تمحو المكان القديم من ذاكرتها.

X

كان أورخان يعيش مرحلة مختلفة من التاريخ العثماني. فقد انتقلت الدولة في عهده من طور الجماعة الحدودية الصغيرة إلى طور أكثر انتظامًا في الإدارة والعمران والوجود السياسي.

كان السيف حاضرًا ، لكنه لم يكن وحده.

فالمدينة التي تُفتح تحتاج إلى إدارة ، والطريق الذي يُؤمَّن يحتاج إلى عمران ، والحدود التي تتوسع تحتاج إلى سكان ، والأسرة الحاكمة تحتاج إلى علاقات تثبت موقعها.

وفي هذا العالم كان الزواج قادرًا على أن يفعل ما لا تفعله المعركة أحيانًا.

جلس أورخان ، في تصورنا الأدبي ، أمام نيلوفر ذات مساء ، وكان الليل قد هبط على المكان بهدوء.

قال لها : ألا تشتاقين إلى عالمك الأول ؟

نظرت إليه طويلًا قبل أن تجيب : الإنسان لا يشتاق إلى الحجارة يا أورخان، بل إلى الوجوه التي كانت بين الحجارة.

صمت.

ثم قالت : أنت ترى البلاد من فوق ظهور الخيل. أما أنا فأراها من أبواب البيوت.

ابتسم أورخان، لكنه لم يجب.

فقد أدرك ، ولو للحظة ، أن الدولة التي يريد بناءها لا تتكون من الرجال الذين يحملون السلاح فقط ، بل من أولئك الذين يعيشون نتائج السلاح.

X

مع مرور الزمن ، لم تعد نيلوفر مجرد امرأة جاءت من خارج المجتمع العثماني. ارتبط اسمها بالأسرة ، وبالمؤسسات الدينية والاجتماعية ، وبأعمال خيرية نُسبت إليها في الذاكرة العثمانية.

وهنا تظهر نقطة مهمة في فهم التاريخ : الاندماج ليس لحظة واحدة.

إنه سنوات من اللغة الجديدة ، والوجوه الجديدة ، والعادات التي تتحول بالتدريج من شيء غريب إلى شيء مألوف ، وهو كذلك عملية نفسية ؛ أن يتعلم الإنسان كيف يكون حاضرًا في مجتمع جديد دون أن يصبح غريبًا عن نفسه.

ولعل هذا ما جعل شخصية نيلوفر أكثر أهمية من مجرد حكاية زواج ، فهي تمثل ، بصورة رمزية ، قدرة المجتمعات الحدودية على إنتاج هوية جديدة من عناصر مختلفة ، لم يكن العالم العثماني في بداياته كتلة مغلقة، بل كان فضاءً تتجاور فيه جماعات وثقافات وذكريات متعددة.

ومن هنا يمكن قراءة نيلوفر بوصفها صورة للعبور ، عبور امرأة من ضفة إلى أخرى ، وعبور مجتمع كامل من زمن إلى زمن.

X

تختفي أسماء كثيرة من التاريخ لأنها لم ترتبط بانتصار عسكري ، أو لأن أصحابها لم يتركوا وراءهم بناءً أو وثيقة ، لكن بعض النساء استطعن أن يتركن أثرًا مختلفًا.

لقد ارتبط اسم نيلوفر بأعمال عمرانية وخيرية ، وأصبح اسمها حاضرًا في الذاكرة من خلال المؤسسات التي نُسبت إليها ، ومن بينها ما عرف لاحقًا بجسر نيلوفر.

وهنا تتحول الصورة إلى معنى ، السيف يقطع المسافة بين رجلين أما الجسر فيختصر المسافة بين مكانين.

السيف يفرض العبور ، والجسر يجعل العبور ممكنًا.

لهذا يبدو الجسر ، في القراءة الرمزية لحياة نيلوفر ، أكثر بلاغة من السيف ، فحياة امرأة بدأت على ضفة ثقافية وانتهت جزءًا من ضفة أخرى تصبح استعارة عن التاريخ نفسه : التاريخ ليس دائمًا هدمًا وبناءً، بل هو أيضًا عبور.

وقد يكون أجمل ما في الحكاية أن الاسم الذي حملته امرأة من الماضي ارتبط في الذاكرة بفكرة تصل الناس ببعضهم.

X

لو عاد الزمن بنا إلى أحد أيامها الأخيرة ، وجلسنا معها بعيدًا عن المؤرخين والقصور ، لربما سألناها : أي العالمين كان وطنك ؟

قد تنظر إلينا بصمت.

ثم تقول : الوطن ليس دائمًا المكان الذي وُلدنا فيه.

ونسألها : فأين وطنك ؟

تجيب : في المكان الذي تعلمت فيه أن أعيش من جديد.

ثم نعود بالسؤال : وهل نسيتِ هولوفيرا ؟

فتبتسم.

وهل ينسى الإنسان وجهه القديم ؟

ثم تضيف : كنت هولوفيرا، وصرت نيلوفر. لم تمت الأولى ، ولم تبتلع الثانية ، بقيت الاثنتان في داخلي.

هذا الحوار ، وإن كان تخييلًا أدبيًا لا نصًا تاريخيًا ، يكشف جوهر القضية أكثر مما تكشفه التواريخ الجافة. فالأحداث الكبرى لا تعني شيئًا إذا لم نفهم أثرها في النفوس.

X

تعلّمنا قصص الفتوحات عادة أسماء السلاطين والقادة ، ونحفظ تواريخ المعارك وسقوط المدن. لكن التاريخ الحقيقي أوسع من ذلك.

فحين تسقط مدينة ، لا يسقط حجر فقط ، يتغير اسم الشارع ، وتتغير لغة الإدارة ، وتتغير راية الحصن ، وقد تتغير ملابس الناس وعاداتهم، وربما أسماء أطفالهم أيضًا.

لكن أكثر ما يتغير هو معنى الانتماء.

ولهذا فإن قصة نيلوفر خاتون تمنحنا نافذة صغيرة على تحول أكبر. إنها تضع الإنسان في قلب عملية بناء الدولة ، وتذكرنا بأن التاريخ لم يكن حركة جيوش فحسب ، بل حركة بشر.

كانت هناك نساء مثل نيلوفر يعشن التحولات في صمت.

وكان هناك أطفال يولدون في مجتمع جديد دون أن يعرفوا أن آباءهم جاؤوا من أماكن أخرى.

وكان هناك رجال يتزوجون من عائلات مختلفة ، وتجار يعبرون الطرق ، ورجال دين ينقلون أفكارهم ، وحرفيون يغيّرون المدن بأيديهم.

هكذا تتشكل الدول أحيانًا : ليس فقط حين ينتصر جيش ، بل حين يبدأ الناس في العيش معًا.

X

لا نملك كل تفاصيل حياة نيلوفر خاتون ، ولا نستطيع أن نملأ كل الفراغات التي تركتها المصادر بيقين تاريخي. ولذلك فإن جمال قصتها لا يكمن في ادعاء معرفة ما لا نعرفه ، بل في قراءة ما بقي من آثارها داخل السياق التاريخي الواسع.

كانت هولوفيرا ابنة عالم ، وأصبحت نيلوفر جزءًا من عالم آخر ، بين الاسمين توجد حياة كاملة ، وبين الضفتين يوجد تاريخ.

لم تكن بالضرورة قصة حب بالمعنى الذي تصنعه الروايات الحديثة ، ولا قصة أسطورية مكتملة الأركان. إنها ، قبل كل شيء، قصة إنسانية تقع عند تخوم الحرب والسياسة والأسرة والهوية.

أما أورخان ، فقد مضى في طريقه ، وبنى مع رجال عصره دولة ستتسع بعد ذلك حتى تصبح إمبراطورية عظيمة.

وأما نيلوفر ، فبقي اسمها في الذاكرة بطريقة مختلفة ، لم يبق لأنها حملت السيف ، بل لأنها عبرت بهدوء من عالم إلى عالم ، ثم تركت خلفها أثرًا يشبه الجسر.

ولهذا يمكن أن نقرأ قصتها بوصفها سؤالًا لا جوابًا : ماذا يحدث للإنسان حين يتغير العالم من حوله ؟

ربما يتعلم أن الهوية ليست حجرًا لا يتحرك ، وأن الوطن قد يكون أكثر من أرض، وأن الماضي لا يموت حين نعبر منه، بل يمشي معنا ، وربما لهذا ظل اسم نيلوفر حيًا.

فالتاريخ يحب السيوف لأنها تصنع ضجيجًا ، لكنه يتذكر الجسور لأنها تبقى ، والسيف يفتح الطريق بالقوة ، أما الجسر، فيقول للناس : تعالوا ، يمكنكم العبور.

وفي زمن كانت القلاع فيه تُفتح بالسلاح ، ربما كان أجمل انتصار هو أن يتحول العبور نفسه إلى حياة.

كانت نيلوفر امرأة عبرت ضفة.

لكن الذاكرة جعلتها ، بعد قرون ، جسرًا بين ضفتين.

وهكذا يصبح الجسر أبلغ من السيف.